روايات عبير



لوسي جيلين

أينَ المفرّ؟



٧٩

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 79

أينَ المفرّ؟

مسألة التسليم للأمر الواقع تجعل اكثر القلوب وداعة وبساطة ومحافظة على التقاليد تجفل قليلاً، فكيف اذا كانت الفتاة تتمتع بميل الى المعرفة والمفاضلة والحرية؟

سامنتا ترعرعت قرب بارني. السنوات كرت وهي لا تسمع من عمها ومن كل الذين حولها انها وبارني سيتزوجان عندما تبلغ السن المناسبة. فلم تعرف غيره ولم يخيل اليها ان شيئاً من هذا الواقع يمكن ان يتغير. قبيل موعد العرس اكتشفت انها لا تريد ان يفرض أحد عليها شيئاً... فقامت بجول البلاد هاربة من بارني وظله، متعرفة الى اشخاص من كل نوع وجنس. الا ان بارني تبعها حتى وجد الشقراء باتسي غوردن، فانصرف يغازلها بلا هوادة...

تعال يا بارني، تعالي يا سامنتا، فأين المفر؟

العنوان الاصلي لهذه الرواية بالانكليزية
THE RUNAWAY BRIDE

المراسلات
Harlequin (Cyprus) Ltd.
29 Michalakopoulou St.
Athens T.T. 612, Greece

Printed in Great Britain by
Richard Clay (The Chaucer Press) Ltd, Bungay, Suffolk

١- من قطار الى قطار

ألقت سامنتا نظرة الى الخارج عبر نافذة القطار وتنهدت بعمق ثم رمقت المسافر الآخر في مقصورتها خشية ان يكون قد انتبه الى حالتها، لكنها رأته غائصاً في قراءة الصفحة الاقتصادية من صحيفته اليومية منكفئاً على ذاته، على غرار غالبية المسافرين في قطارات الخطوط البريطانية. وكانت سامنتا في حالة من التحسّر على ذاتها، لكنها لم تكن مستعدة ابداً للاعتراف بها ولو في قرارة نفسها.

لقد بدا زواجها من بارني وكأنه امر محتّم وطبيعي. كان الجميع يسلّم منذ زمن بعيد انهما سوف يتزوجان يوماً ما حتى ان اياً منهما لم يفكّر في البحث جدياً بالمسألة. هذا لم يمنعهما من اقامة علاقات عابرة احياناً، كل على حدة حتى ان بعض اصدقائهم المشتركين لقبوا بارني «بزير» نساء.

وكانت تربط بين والد بارني وعمها وهو الوصي عليها علاقات صداقة وعمل منذ سنين عديدة، وكان بارني قد عاملها معاملة طيبة منذ ايام الصبا حين كانا يلتقيان في الاجازات وفي النزهات.

صحيح انه نجح مرة، اثناء عطلة امضاها برفقة عمته، في ان يجعلها تضلّ طريقها وسط ريف اسكتلندا الموحش، لكنه كان اكثر افراد مجموعة البحث عنها قلقاً، وعثر عليها مرتجفة من البرد، خائرة القوى والدموع تنهمر بغزارة من عينيها، وقدم لها دمية صغيرة

تعويضاً عما مرّت به، وهي لا تزال تحتفظ بها الى اليوم. ولم يخبر احداً غيرها انه تعمد تضليلها لكنها هي ايضاً لم تتكلم في الموضوع لاحد.

اعتراها الخوف لدى اقتراب موعد الزواج فلاذت بالفرار. كانت تتفادى التفكير بردة فعل عمها نيكولاس وقد عرفته وصياً كريم الاخلاق. وطيلة الثمانية عشر عاماً التي اهتم بها فيها كانت تدرك ان لتسامحه حدوداً وقد بلغت الحادية والعشرين من العمر وهي سنّ اعتاد باري على وصفها بانها سن الهفوات.

ها هي الآن تثبت له صحة ادعاءاته وكانت تدرك انها لربما اخطأت في الرحيل سراً خاصة انه كان قد تمّ انجاز الترتيبات للزواج واختيار فستان الزفاف، والحقيقة انها خلال تجريب فستان الزفاف عند الخيّاط، رأت صورتها في المرآة وادركت ان الأمور على وشك الاطباق عليها فلاذت بالفرار.

اخبرها الخيّاط انها تبدو رائعة الجمال في ثوب الزفاف وكانت تعلم انه على حق: وجهها المتناسق الخطوط وعيناها الواسعتان ولونهما الأزرق الصافي تحت الرموش الطويلة والمكثفة كانت تلفت الأنظار اينما وجدت. وغالباً ما كانت ترخي شعرها الذهبي الأحمر الطويل وترفعه احياناً في تسريحة متكلفة كتسريحتها اليوم التي تعطيها اكثر من عمرها. كان العديد من الرجال يعبرون لها عن اعجابهم بجمالها وذلك اما شفهياً او عن طريق الايماءة بالنظرات. اما باري فهو الرجل الوحيد الذي يعتبر جمالها مجانياً. وهي الآن مصممة ان تثبت له العكس.

نظرت مجدداً من النافذة فتراءت لها محطة صغيرة وكأنها استراحة لا غير وسط ريف ساري المشمس فنهضت بسرعة ولا شعورياً. لم تكن تدري وجهة سفرها حين وصلت الى المحطة بل كانت متلهفة

للابتعاد عن ليتل ديتوك وعن باري واستعدادات حفل الزفاف، فابتاعت بطاقة لا تحدد نقطة الوصول.

ترجلت من القطار ووضعت حقيبتها على الرصيف واستقبلتها نظرة استياء رماها بها رجل يلوح براية، نظرت حولها تتساءل عما ينبغي ان تفعل. لم تكن معتادة ان تعتمد على نفسها وادركت انه اصعب مما تصورت.

نادراً ما كانت تسافر بمفردها ومتى فعلت كانت تكتفي بتحديد وجهة سفرها مسبقاً فيتمّ تحضير جميع الوسائل لرفاهيتها.

وكانت مهمتها تقتصر عادة على طلب سيارة تاكسي واعطاء السائق عنوان المكان الذي تقصده لكن الامر مختلف تماماً هذه المرة فهي بمفردها وتجهل تماماً المكان الذي ستنزل فيه.

وقفت لبرهة تتأمل القطار الذي توارى متابعاً رحلته وقد ساورها للمرة الأولى منذ مغادرتها المنزل انها لربما تهورت في اتخاذ قرارها بالفرار. لكن الندم لا يجدي نفعاً فتوجهت نحو المخرج مستسلمة لقدرها. التقت بالعديد من الناس وتساءلت اذا كان بامكان احدهم ان يرشدها الى مكان تنزل فيه ولو ليلة واحدة. فنظرت الى موظّف البطاقات وابتسمت له في محاولة لكسب مودته وقالت:

«ترى، هل تستطيع مساعدتي؟».

أشرق وجهه وفاض ثقة ثم اجابها قائلاً:

«ربما استطعت يا آنستي. ماذا تريدين؟».

«هل من فندق قريب؟».

مدّ يده يحك مؤخرة رأسه حائراً ثم قال:

«لست ادري ان كان عندنا فندق بكل معنى الكلمة، انما هناك نزل صغير يدعى الميرميد عند آخر الشارع وهو يستقبل بعض النزلاء من وقت الى آخر».

لم تكن سامنتا متأكدة من استقبال النزل لها، لكنها استفسرت عن موقعه ثم شكرت الموظف مبتسمة وتوجهت نحو نزل الميرميد. لم تجد اية صعوبة في العثور عليه وفوجئت مفاجأة سارّة حين تبيّن لها ان مبنى النزل قديم جداً وجميل وتكهنت انه يستقبل المسافرين منذ اكثر من ثلاثمئة سنة وان كان عددهم انخفض من قبل.

حوّلها رجل متوسط العمر وودود الى زوجته حين سألته عن غرفة، فاستقبلتها الزوجة بلياقة لم تخل من بعض الحذر. وفسّرت لها انها غير معتادة على استقبال الفتيات الآتيات بمفردهن وبهذه الفجائية. وتحجز الغرف عادة مسبقاً وقد حالفها الحظ اليوم اذ الغي حجز احداها في الصباح.

فقبلت سامنتا النقد غير المباشر الذي وجهته اليها المرأة وحمدت المصادفات التي جعلتها ترفع شعرها عن عنقها والا لكان ظن الناس انها مراهقة فارّة من البيت العائلي. لم تحاول تفسير ظروف مجيئها. وقررت لعب دور المتمردة على اكمل وجه وعدم تبرير تصرفاتها لاي كان.

لم تستطع الاستحمام قبل العشاء وذلك لعدم وجود كمية كافية من الماء الساخن لكنها اغتسلت وبدلت ملابسها ثم هبطت السلم وادركت ان العشاء يقدم في قاعة طعام عامة.

كان المطعم قديم الطراز، لطيف الجو، يحتوي على العديد من الطاولات الصغيرة التي تتسع لشخصين او لأربعة اشخاص.

رأت سامنتا بعض نزلاء الفندق وقد جلسوا ازواجاً يتناولون طعام العشاء وخصصت لها طاولة لشخصين في احدى زوايا القاعة بجوار نافذة. اعلمتها صاحبة النزل انها قد تضطر الى مشاركة طاولتها مع احد النزلاء ان غصّ بهم المطعم فوافقت سامنتا بسرور.

بدأ الناس يتوافدون على المطعم اثناء تناولها العشاء. واحست

بشعور من الاثارة لكونها «فلتانة» كما يحب ان يدعوها باري. لكنها ما لبثت ان قطبت حاجبيها لتفكيرها بباري.

ما الذي يدفع بها الى التفكير دوماً بما يقوله باري؟ فهي رحلت لتبتعد عنه وليس لتستمر في تطبيق اقواله على كل ما تراه وتسمعه.

انتهت من تناول وجبتها الاساسية ثم طلبت بعض الحلوى وجلست تنتظر وصولها. وراح نظرها يجول على رواد المطعم، متسائلة بتحفظ عن هوية كل منهم وطبيعة عمله وعن العلاقات التي تربط بين بعضهم، وكانت هذه هوايتها المفضلة اثناء تناولها الطعام في الاماكن العامة وغالباً ما كان باري يسخر من عادتها هذه. آه باري! عضت على شفتيها بقوة وتشابكت يداها على الطاولة امامها لتفكيرها به مجدداً وقررت ان تمحيه من ذهنها.

احضرت صاحبة النزل الحلوى فتناولت سامنتا ملعقتها ثم التفتت حين تراءى لها ظل غطى الطاولة ورأت صاحبة النزل مجدداً برفقة شخص يبغي تناول العشاء وكانت تبتسم معتذرة حين سألتها:

«هل تمانعين ان يشاركك هذا السيد طاولتك يا آنسة داوليش؟».

وكادت ان تهز رأسها مبتسمة مشجعة صاحبة النزل حين قاطعها الدخيل قائلا:

«طبعاً لا تمانع، أليس كذلك يا سامنتا؟».

«انت»!

حدقت به سامنتا لبرهة مدهوشة ثم ادركت انه لحق بها او بالاحرى تقفى اثارها واحست بموجة من الغضب تجتاحها.

«بلى امانع!».

قالت سخطاً مما اربك المرأة التي راحت تتنقل بنظرها بينهما.

تجاهل باري اعتراض سامنتا برباطة جأشه المعهودة وجلس الى الطاولة وهو يهز رأسه معاتباً ثم خاطب صاحبة النزل مطمئناً:

«لا تقلقي. سوف اقبل بهذه الطاولة. هلا احضرت لي لائحة الطعام؟».

«طبعاً، طبعاً يا سيدي».

هرعت تلبي طلبه رغم ارتيابها كان قد اقنعها انه يعرف الآنسة معرفة وثيقة وانها سترحب به واذ بالعكس. وهذا يحدث ومن حق رواد المطعم ان ينفردوا بطاولتهم ما دام ذلك ممكناً. عادت الى الطاولة وبيدها لائحة الطعام وبدت لها الآنسة منزعجة جداً وقد تورّد خداها فيما بدا القادم وكأنه غير معني بالأمر ابداً.

بعد ان اختار طعام عشائه خاطب بارني سامنتا قائلاً:

«انا سعيد بكوني فاجأتك مفاجأة سارة. كنت واثقاً من انك متسرين لرؤيتي».

«انت مخطىء لست سعيدة ابداً لرؤيتك».

وعبرت ملامح وجهها عن استيائها الشديد.

«آه ما بك يا سامنتا؟».

مد يده باتجاه يدها واوشك ان يلامسها لو لم تسحبها بسرعة وحدقت به غاضبة ثم قالت:

«هربت للافلات منك وهل انت مضطر ان تلحق بي؟».

«لست مضطراً. لكن العم نيكولاس كان قلقاً لرحيلك المفاجىء فعرضت عليه اللحاق بك واعادتك الى المنزل».

تناولت سامنتا القطعة الأخيرة من الحلوى وراحت تمضغها بتأن ثم ابتلعتها قبل ان تجيبه بصوت هادىء:

«لن اعود الى المنزل».

«آه. وهل قررت ان تهاجري؟».

وانزعجت سامنتا لاستخفافه بكلامها فاجابته بصوت حملته بكلّ الوقار الممكن:

«لم اقل اني في صدد الهجرة بل كل ما اريد هو الابتعاد عنك».

«آه فهمت».

«اشك في ذلك».

اجابته سامنتا بحدة ورمت ملعقتها على الطاولة بعنف مما لفت انتباه الرجل وزوجته الجالسين على الطاولة المجاورة فتبادلا نظرات متهكمة وقطبا حاجبيهما.

«احاول فهمك».

ومد يده نحوها ونجح هذه المرة في التقاط يدها وتابع:

«اجهل سبب غضبك مني».

كانت تجهل السبب لكنها اكتفت بالافتراض انها مستاءة منه للحاقه بها واعترفت له:

«لست غاضبة فعلاً منك».

«لكنك لا تريدين رؤيتي.

هل يمكنك ان تقولي لي السبب؟».

حاولت ايجاد الكلمات المناسبة للتعبير عما يخالجها لكن بدون جدوى اذ كانت تجهل حقيقة شعورها، فكيف لها ان توضحها له؟ فقالت:

«رغبت في الرحيل. هذا كل ما في الامر. ولست مضطرة ان اوضح لك كل خطوة اقوم بها. اليس كذلك؟».

«بلى!».

«كلا! اعذرني الآن فاني مرهقة».

لكن بارني الحّ عليها محاولا الابتسام:

«وما سبب ارهاقك؟ فلم تقطعي سوى بعض الاميال في القطار وليس في عربة خيل».

قطبت حاجبيها متسائلة للمرة الأولى عن الطريقة التي استعملها

للعثور عليها فسألته:
«وكيف علمت بمكاني؟».
فابتسم من جديد وقال:
«آه ليس من الصعب اللحاق بك يا عزيزتي. فالناس تلاحظك وخاصة الرجال منهم».
وادارت سامنتا وجهها رافضة مواصلة النقاش فقالت:
«حسناً، ارجو ان تتوقف عن ملاحقتي».
«متى تنتهي رحلتك؟».
«هذا الأمر لا يعنيك».
«يعنيني، ان كنت مصممة على التغيّب يوم الزفاف».
«اريد. . . اريد البقاء وحدي».
«هل انت مضطربة بسبب اقتراب موعد الزفاف؟».
احمرّ خداها من دون ان تفهم سبب ذلك فنهضت من كرسيها وقالت بثبات:
«كلا. انما اريد التحقق من امر قبل فوات الأوان».
سرت بالاسلوب المسرحي الذي خرجت به من القاعة رغم يقينها ان بارني سيهزأ منها. وقررت الا تمكث هنا مدة اطول بعد ان علم بمكانها وفتشت عن صاحبة المنزل لتوضح موقفها، وهذه بالطبع لن تسرّ بهذا التبديل، لكنها كانت عازمة على الرحيل اذ لا جدوى من البقاء بوجود بارني.
دفعت بعض المال تعويضاً عن الازعاج الذي سببته للمرأة وغادرت المنزل الى المحطة.
اوضحت لموظف البطاقات انها تلقت مكالمة غير متوقعة تطالبها بالعودة وراحت تتساءل عن سبب ابتسامته المتواطئة فتذكرت ما قاله بارني عن سهولة تقفي آثارها. ورجحت ان يكون الموظف هذا

ساعد بارني على ايجادها وارشده الى نزل الميرميد وهو الآن مسرور لمعاودتها الهرب.
ركبت اول قطار وصل المحطة من دون ان تكترث لوجهة سيره لكثرة قلقها. واسترخت في مقعدها بعد ان اقلع القطار وايقنت انها سوف تقضي نصف الليل في القطار عوضاً عن سريرها المريح في نزل الميرميد. وكل ذلك بسبب بارني.
كاد النهار الصيفي الطويل يشرف على نهايته حين توقف القطار في مدينة برايتون. وتنهدت بعمق حين حملت حقيبتها مجدداً وترجلت من القطار. كانت تود لو استطاعت متابعة السفر الى مكان ابعد غير ان القطار لن يكمل رحلته وعزت نفسها بان برايتون مدينة سياحية كبيرة مما يصعب على بارني العثور عليها فيها. هذا ان كان لا يزال مصمماً على اللحاق بها. فقد يقنعه فرارها من النزل بجدية اقوالها.
ادركت سامنتا انه من الصعب جداً العثور على غرفة خالية في منتجع سياحي في فصل الصيف وفي مثل هذه الساعة ارشدها شرطي اخيراً الى فندق صغير فركبت سيارة أجرة وقصدت الفندق الذي كان بعيداً عن شاطىء البحر وخارج المدينة نفسها.
استطاعت الحصول على غرفة بسهولة وكانت صاحبة الفندق امرأة ودودة تعاطفت معها حين اخبرتها انها وجدت غرفتها المحجوزة في فندق آخر غير خالية ثم اخطأت في اختيار القطار المناسب مما تسبب في وصولها بهذه الساعة المتأخرة. ارشدتها صاحبة الفندق الى غرفة صغيرة ولكن مريحة تطلّ على حديقة خلف المنزل.
وقالت لها المرأة:
«تناسبك الغرفة تماماً يا عزيزتي».
وابتسمت سامنتا شاكرة ثم جلست على حافة السرير وقد غمرتها الراحة.

بعد دقائق قليلة كانت مستسلمة لنوم عميق لم تفق منه الا لبرهة وجيزة على صوت خطى في الباحة تحتها لكنها عادت الى النوم مطمئنة البال، بارني لن يستطيع العثور عليها هذه المرة مهما حاول.

استيقظت في الصباح التالي وقد غمرت الشمس غرفتها وتثاءبت بكسل ورمقت ساعة يدها: الساعة تجاوزت الثامنة. وتذكرت ان الافطار يقدم بين الثامنة والنصف والتاسعة والنصف وكانت تشعر بجوع شديد ازدادت حدته اثناء توجهها الى الحمام، اذ داعبت انفها روائح البيض المقلي الشهيّ وقد فاحت من مطابخ الفندق.

قررت المكوث في برايتون ليوم أو يومين وربما لمدة اطول ان راقت لها المدينة لكنها عزمت الرأي على مكالمة عمّها وطمأنته فمن الظلم اقلاقه بهذه الطريقة، وقد تستغل الفرصة لتطلب منه ان يردع بارني عن ملاحقتها والا هددته بالتواري نهائياً.

استحمت وارتدت ثيابها ثم هبطت السلم متلهفة لتناول الافطار فدخلت قاعة الطعام المزدوجة واستقبلتها صاحبة الفندق بابتسامة عريضة وقالت لها بحماس:

«المكان ضيق بعض الشيء لكني اضفت لك طاولة صغيرة ارجو ان تناسبك».

ابتسمت سامنتا ابتسامة لم تخل من الاعتذار وقالت لها:

«غاب عن ذهني مدى انشغالكم في مثل هذا الوقت من السنة وانا آسفة لهبوطي المفاجىء عليكم ليلة الأمس».

«آه لا تدعي هذا الامر يقلقك من السهل عليّ التكيّف مع الوضع ولا احب رفض اي شخص في مثل هذا الوقت من السنة، فمن المؤسف ان تفسد عطلة احدهم بسبب التباس في الحجز».

«اشكرك على لطفك».

وعادت المرأة منهمكة بعد بضع دقائق وقالت لسامنتا.

«والغريب انه اتتني عنزة شاردة اخرى بعيد قدومك».

قطبت سامنتا حاجبيها وتذكرت الأصوات التي سمعتها من الباحة ليلة أمس وسألت صاحبة الفندق بارتياب:

«وصل شخص آخر بعدي».

واومأت المرأة ايجاباً وقالت:

«اجل قدم شاب ولا اقبل عادة ايواء عدد من الأشخاص يفوق طاقة استيعاب الفندق لكن قلبي لم يطاوعني على طرده فوضعته في غرفة ابني جورج وهو المكان الخالي الوحيد المتبقي ولم يمانع ابداً و...».

انقطعت عن الكلام ونظرت الى البعيد مبتسمة وملوحة بيدها، فيما غار قلب سامنتا باليأس.

«ها هو قادم الآن. لا مانع عندك ان يشاركك طاولتك. اليس كذلك؟ فهو شاب لطيف جداً».

ادركت سامنتا ان لا فارق ان مانعت او لم تمانع ورفعت نظرها لتشاهد ابتسامة بارني المشرقة تطل عليها. طوى قامته الطويلة وجلس الى الطاولة ولاحظت سامنتا نظرات الفتاة الجالسة الى الطاولة المجاورة تلحق بكل حركة من حركاته. كان يلفت الانتباه وخاصة انتباه فتاة تمضي اجازتها وفي ذهنها شيء واحد لكن سامانتا لم تستطع كبح جماح موجة الغضب التي اعترتها حين التفت نحو الفتاة وابتسم لها شاكراً اعجابها به.

كان يبدو وكأنه رجل اعتاد تمضية اجازاته خارج البلاد وكان غالباً ما يفعل ذلك. واكتسبت بشرته لوناً اسمر داكناً يبرز بياض ابتسامته شبه الدائمة وقد ورث عن جدة اسبانية عينين عسليتين وشعراً اسود اضفت عليه ملامح شرقية فاتنة وهو يجيد استعمال سحرها متى اراد.

«صباح الخير يا سامنتا؟».

تحدّاها بابتسامته من القيام بأي عمل متهوّر وقاومت رغبتها في النهوض حالا والاحجام عن تناول الافطار. لكن شدة جوعها وكرهها للمشادات العامة جعلاها تعدل عن ذلك.

وهمست بحدة:

«اني اكرهك».

فضحك ثم قال:

«تعالي يا عزيزتي ودعينا من هذه المأساة».

«ليست مأساة، انما لا اقبل ان تلحق بي عبر البلاد وكأني مجرمة».

وقال لها بصوت عبر عن قرب نفاد الصبر:

«القلق والمشاكل التي تسببينها لنا هي من باب الاجرام».

تمنت سامنتا لو كانا في مكان منعزل حتى تستطيع التعبير عن سخطها لكنها تماسكت وقالت:

«لا شيء يدعو للقلق. ارغب في العيش وحدي لبعض الوقت».

«بعيداً عني».

«نعم».

«لماذا؟».

لم تستطع تفادي نظرته لكنها انتبهت في الوقت نفسه الى ان الفتاة الجالسة الى الطاولة المجاورة كانت تتفحصها باهتمام بالغ وكأنها اكتشفت اخيراً انهما يعرفان بعضهما.

«وما ذنبي يا سامنتا؟».

صمتت سامنتا لبرهة وقد اشتبكت يداها على الطاولة امامها ثم اعترفت:

«لست ادري بالتحديد».

سألها بلطف:

«الا تريدين الزواج مني؟».

«لست ادري ايضاً».

التزم الصمت الى ان قدّم الافطار فنظر اليها وابتسم ابتسامة عبرت عن بعض التفهم لدوافعها:

«الا تظنين ان مراجعة حساباتك أتت متأخرة بعض الشيء؟».

عضت سامنتا على شفتها لكثرة اضطرابها ثم قالت:

«انه... آه لا اعرف كيف اوضح لك. اشعر انه من الأفضل الاّ اتزوجك. او بالأقل ما دمنا على هذه الحال».

«وما بنا؟».

شعرت سامنتا باحمرار خديها بشدة ولكنها فوجئت بافكارها تتجه نحو الفتاة المجاورة وتتساءل عن مدى تقييمها لوضعهما.

«اعني، آه لسنا كغيرنا من المقبلين على الزواج. اليس كذلك؟».

«وبمَ نختلف عنهم؟».

احست انه يتعمد عدم التفهم لارباكها:

«اعني اننا لسنا... لسنا...».

فوجئت بالصعوبة التي لاقتها للتعبير له عن اسباب ترددها فالتكلم عن الحب سهل جداً متى تأكد الانسان من وجوده، لكنها ادركت لتوها انه الشيء الذي تفتقر اليه علاقتهما. لم يتفوّه بارني مرة في حياته بكلمة احبك وهي لم تفكّر فيه سوى كونه شخصاً اعتادته واعتادت فكرة الزواج منه تحقيقاً لتوقعات العديد من الاصدقاء.

وسألها وكأنه تكهّن ببعض ما يجول في ذهنها:

«ماذا تحاولين اخباري يا سامنتا؟».

«اعني، اعني انك لم تغازلني ابداً».

لم يستطع اخفاء الابتسامة لسماعه لفظة المغازلة وقال بصوت ناعم:

«آه فهمت. تريدينني ان اغازلك اهذه هي المشكلة؟».

«وهل هذا بالطلب المستحيل؟ ان معظم الفتيات يحظين ببعض الاهتمام من خطبائهن. اليس كذلك؟ ولم احرم من ذلك انا؟».

«عليّ اذن ان اسرع في تقديم باقات الزهور وعلب الحلوى لك واركع على ركبتي اكلمك عن لوعة حبي لك، اهذا ما يجول في ذهنك؟».

ايقنت سامنتا لتوّها انه يهزأ منها وشعرت برغبة جامحة في صفعه رغم الفضيحة والفتاة المجاورة لكنها تماسكت وقالت له:

«اني اكرهك».

«هذا الكره ليس قاعدة فضلى لزواج سعيد».

«انا سعيدة لموافقتك رأيي لربما توقفت الآن عن ملاحقتي وتركتني اسافر بمفردي حتى تتبلور الأمور في ذهني».

«واترك العجوز نيكولاس المسكين يتلوع قلقاً عليك لا، لا يمكنني ذلك».

«يمكنك ذلك. فلست طفلة وبامكاني الاهتمام بذاتي على افضل وجه. ولا داعي للعم نيكولاس ان يقلق من اجلي وسوف اطمئنه عن حالي بين الحين والآخر».

«وما تنوين عمله اثناء رحلتك هذه عبر البلاد؟».

«الاستمتاع بكل ما حولي ولم لا؟».

«وحتى يتحرّش بك كل الرجال الذين يؤمون المنتجعات السياحية بحثاً عن النساء كهذا الجالس في الزاوية هناك الذي لم يتوقف عن رميك بنظرات هائمة منذ لحظة دخولك الى القاعة».

رفعت سامانتا كتفيها غير مبالية وهي لم تكن قد لاحظت الرجل ابداً وسرها ان تكون ممسكة بزمام الأمور في هذه اللحظة وقالت لباري:

«ربما... ولم لا؟ ما الفرق بينه وبين تلك الشقراء السمينة التي تغازلها بنظراتك؟».

وابتسم باري هازئاً وقال:

«اراك تغارين منها».

وجاهدت على نفسها كي لا تصفعه ولست لأول مرة قدرته على اغاظتها احياناً فقالت له:

«لا أغار ابداً».

وهز رأسه ثم ابتسم مدعياً بعض الحزن:

«اذن فالجسور فعلا مقطوعة بيننا. لو كنت تشعرين بأي شيء تجاهي لكنت مستاءة من مغازلتي لها».

وقالت بسرعة:

«ولكن هذا الوضع ليس جديداً بالنسبة اليّ. فلقد اخبرني مارتن وسيلفيا انك لا تضيع وقتك مع النساء في غيابي فلم تقلقني شقراء تزيد أو تنقص».

ورمقها بارتياب ثم قال بعد لحظة:

«آه. فهمت. لم افكر في حياتي انك تصغين الى هذا النوع من الأحاديث المفترية والتافهة يا عزيزتي».

واحمرّ خداها وتمنت لو لم تتهوّر في الاجابة وتعطيه هذا الانطباع الخاطىء عن ذاتها فقالت:

«اطّلعت على وقائع ولم ابال ابداً لنشاطاتك».

ونظر الى وجهها المحتقن والغاضب ثم ابتسم وقال:

«ابداً؟».

«ابداً. انت مستحيل يا باري ارفض الجلوس هنا والخوض في نقاش معك. افعل ما تشاء فاني راحلة ولا يهمني ابداً ما تفعل ما دمت بعيداً عني».

«آه فهمت. تريدينني ان اغازلك اهذه هي المشكلة؟».

«وهل هذا بالطلب المستحيل؟ ان معظم الفتيات يحظين ببعض الاهتمام من خطابهن. اليس كذلك؟ ولم احرم من ذلك انا؟».

«عليّ اذن ان اسرع في تقديم باقات الزهور وعلب الحلوى لك واركع على ركبتي اكلمك عن لوعة حبي لك، اهذا ما يجول في ذهنك؟».

ايقنت ساماتا لتوّها انه يهزأ منها وشعرت برغبة جامحة في صفعه رغم الفضيحة والفتاة المجاورة لكنها تماسكت وقالت له:

«اني اكرهك».

«هذا الكره ليس قاعدة فضلى لزواج سعيد».

«انا سعيدة لموافقتك رأيي لربما توقفت الآن عن ملاحقتي وتركتني اسافر بمفردي حتى تتبلور الأمور في ذهني».

«واترك العجوز نيكولاس المسكين يتلوع قلقاً عليك لا، لا يمكنني ذلك».

«يمكنك ذلك. فلست طفلة وبامكاني الاهتمام بذاتي على افضل وجه. ولا داعي للعم نيكولاس ان يقلق من اجلي وسوف اطمئنه عن حالي بين الحين والآخر».

«وما تنوين عمله اثناء رحلتك هذه عبر البلاد؟».

«الاستمتاع بكل ما حولي ولم لا؟».

«وحتى يتحرّش بك كل الرجال الذين يؤمون المتجعات السياحية بحثاً عن النساء كهذا الجالس في الزاوية هناك الذي لم يتوقف عن رميك بنظرات هائمة منذ لحظة دخولك الى القاعة».

رفعت ساماتنا كتفيها غير مبالية وهي لم تكن قد لاحظت الرجل ابداً وسرها ان تكون ممسكة بزمام الأمور في هذه اللحظة وقالت لباري:

«ربما... ولم لا؟ ما الفرق بينه وبين تلك الشقراء السمينة التي تغازلها بنظراتك؟».

وابتسم باري هازئاً وقال:

«اراك تغارين منها».

وجاهدت على نفسها كي لا تصفعه ولست لأول مرة قدرته على اغاظتها احياناً فقالت له:

«لا أغار ابداً».

وهز رأسه ثم ابتسم مدعياً بعض الحزن:

«اذن فالجسور فعلا مقطوعة بيننا. لو كنت تشعرين بأي شيء تجاهي لكنت مستاءة من مغازلتي لها».

وقالت بسرعة:

ولكن هذا الوضع ليس جديداً بالنسبة اليّ. فلقد اخبرني مارتن وسيلفيا انك لا تضيع وقتك مع النساء في غيابي فلم تقلقني شقراء تزيد أو تنقص».

ورمقها بارتياب ثم قال بعد لحظة:

«آه. فهمت. لم افكر في حياتي انك تصغين الى هذا النوع من الأحاديث المفترية والتافهة يا عزيزتي».

واحمرّ خداها وتمنت لو لم تتهوّر في الاجابة وتعطيه هذا الانطباع الخاطىء عن ذاتها فقالت:

«اطّلعت على وقائع ولم ابال ابداً لنشاطاتك».

ونظر الى وجهها المحتقن والغاضب ثم ابتسم وقال:

«ابداً؟».

«ابداً. انت مستحيل يا باري ارفض الجلوس هنا والخوض في نقاش معك. افعل ما تشاء فاني راحلة ولا يهمني ابداً ما تفعل ما دمت بعيداً عني».

«لا تمانعين اذن في مجالستي لجارتي الشقراء اللطيفة هذه؟».
ولمعت عيناه بسخرية فحدقت به سامنتا وصاحت:
«افعل ما تشاء فانا لا ابالي».
«حسناً».
رمقته بارتياب ثم سألته:
«هل تعني انك ستكف عن ملاحقتي؟».
ابتسم قائلا:
«لم اقل هذا يا عزيزتي».
«هلا توقفت عن منادتي «عزيزتي» لم تكن تستعمل هذه اللفظة ابداً من قبل وها انت استعملتها عشر مرّات على الأقل منذ البارحة».
«هل انت متأكدة؟ لم يخطر ببالي ان اعدها لكنك طالبتني بمغازلتك يا عزيزتي فلربما هذه هي الخطوة الأولى».
لم تجبه سامنتا بل نهضت بسرعة من كرسيها ومشت بخطى ثابتة الى باب القاعة وقد لحقت بها نظرات صاحبة الفندق الفضولية والقلقة في آن واحد. وادركت سامنتا ان رحيلها سوف يشجع حتماً الفتاة الشقراء على استغلال الفرصة السانحة لها، ولكن لتفعل ما تشاء فسامنتا متأكدة انها غير مبالية ابداً بمغامرات بارني العاطفية.

٢- تلال برايتون

ما لبثت سامنتا ان اكتشفت ان حياة فتاة بمفردها في منتجع سياحي كبرايتون مليئة بالمحاذير، فهي تعطي انطباعاً خاطئاً عن نواياها حتى اثناء التنزه سيراً على الاقدام لبعض الوقت.
وبعد عشرين دقيقة على سيرها في الشوارع كانت عيون عشرين رجلا قد عرضت عليها مئات المشاريع.
لكن برغم ذلك شعرت ان مزاجها المتوتر في هذه اللحظة يتوافق والجوّ السائد، وان كانت تكرهه في الأحوال العادية. تأملت الفنادق الكبرى والفخمة المواجهة للبحر فاعجبت باحدها وقررت الدخول والاستفسار عن غرفة.
اقتربت من موظفة الاستقبال تبتسم آملة. فاجابتها الموظفة ان هنالك غرفة لشخص واحد خالية بسبب الغاء الحجز.
فدفعت سامنتا عربوناً عن الغرفة ووعدت الموظفة انها سوف تحضر حقائبها لاحقاً. وبعد ان شكرت المرأة هبطت سلم مدخل الفندق وعادت الى التنزه على الجادة المحاذية للشاطىء وقررت ان تذهب لاحضار حقائبها ثم تناول الغداء في فندقها الجديد.
لكنها لم تكد تخطو بضع خطوات حتى شعرت بيد تمسك ذراعها فجأة وتوقف سيرها. ذعرت برهة لفجائية اللقاء هذا وكادت تتنفس الصعداء حين ادركت انه بارني، لكن سرعان ما انتقلت من الذعر

الى الغضب وسحبت ذراعها من قبضته فيما قالت:

«كان عليّ ان افهم انه انت».

«وهل خاب املك؟».

رمقته بطرف عينها لبعض الوقت محاولة احباط عزيمته لكنه ضحك وقال:

«حسناً. لا تنظري الي بهذا الشكل. لحسن حظك انني انا وليس غيري من اولئك الرجال الهائمين حولك. ولكن كان قصدك ان تعلقي في شباك احدهم؟ ان كان هذا قصدك يا عزيزتي فمن الأفضل لك ان تعتمري قبعة كتب عليها «عانقني بسرعة» او اية عبارة ترحيب اخرى!».

«وهل تظن اني قد اقدم على عمل كهذا؟».

«انك تحاولين جهدك لحملي على تصديق هذا، واظن انه من الأفضل لك ان تأتي وتتناولي الغذاء برفقتي قبل ان تتفوّهي بجملة سوف تندمين عليها لاحقاً».

وقبض على ذراعها بقوة ودفعها الى السير وسط الجادة المزدوجة لكنها افلتت منه مجدداً وقالت له بثبات:

«لن اتناول الغذاء معك بل سأتناوله في. . .».

وتوقفت لتوّها متفادية اعطاءه عنوانها الجديد واخفضت عينيها. نظر اليها باري بصمت لبعض الوقت وتساءلت عما يجول في ذهنه في هذه اللحظة ثم سمعته يقول:

«ارى انك لم تضيعي وقتك. اليس كذلك؟».

وفهمت اخيراً قصده: لقد ظنّ انها على موعد مع شخص التقته في الصباح. وهو فعلا يسيء الظنّ فيها وبذلك لن يستطيع لومها اذا ما جارت رأيه فيها.

ادارت رأسها بتحدّ ونفضت شعرها الذهبي الأحمر عن جبينها

وقالت:

«لا يتطلب الأمر وقتاً طويلاً».

«هكذا يبدو لي».

خيّل لها انها لمست مسحة من الغيرة في نبرته ولم يكن باري مرة هكذا في حياته وخاصة بالنسبة اليها. وسألها:

«هلا قلت لي اين عثرت عليه؟».

وتمهلت سامنثا قبل الاجابة ثم قالت:

«في. . . في فندقي الجديد».

«آه، فهمت لقد هربت مني مجدداً اليس كذلك؟».

«طبعاً».

«آه. . . آه».

تفحصته سامنثا بارتياب وسألته:

«بما تفكر الآن؟».

ابتسم ساخراً ثم ضحك وقال لها:

«لا شيء. ومتى ستغادرين فندقك الحالي؟».

«اني على وشك الذهاب لاحضار حقيبتي ولست بحاجة الى مساعدتك. شكراً لا اريدك ان تلحق بي مرة اخرى».

«آه. لا انوي ابداً التدخل بينك وبين صديقك الجديد».

راحت تتساءل عن سبب اختلاقها لهذا الرجل وموعدها معه فلن يتأخر باري عن اكتشاف كذبها وباشرت تقول:

«انا. . . انا».

لكنها لم تستطع المتابعة فهي لم تعهد الكذب وتعلم ان باري يملك موهبة خارقة تخوله معرفة الحالات التي تكذب فيها من غيرها. وخاطبها قائلا:

«ان كنت ترفضين مساعدتي لك في احضار حقائبك فمن الأفضل

لي ان ابحث عن مكان اتناول فيه غدائي».

وسمعت نفسها تعتذر منه لا شعورياً:

«انا آسفة».

«وعما انت آسفة؟».

«من... آه دعني من هذا الأمر».

وهرعت الى موقف سيارة الأجرة واطمأنت الى انه لن يلحق بها مجدداً.

كانت قاعة الطعام في الفندق الجديد اوسع من الفندق الأول ووجدت نفسها مجدداً جالسة بمفردها الى طاولة لشخصين، الى ان بلغت الجزء الثاني من وجبتها اذ رفعت نظرها ورأت ابتسامة مترددة تطل عليها.

كان الرجل حديث السن يكبرها بسنة او سنتين، وسيم الملامح هادىء الشخصية. بني الشعر ازرق العينين، راح ينظر اليها وكأنه يعتذر عن تطفله. ابتسمت له سامنتا تشجعه فجلس.

«لم ادر انني سأحظى ببعض الرفقة اخيراً؟ ما هذا المكان الذي وضعوك فيه».

وضحكت سامنتا ثم قالت:

«لا ادري كيف استطاعوا تدبير هذا المكان لي. اظن ان الحظ حالفني لقد وصلت في الوقت المناسب بعد ان الغي حجز احدى الغرف».

«يا لحسن حظك».

وابتسم ابتسامة ودية ولطيفة ثم تابع:

«هل تسمحين لي ان اعرّف عن نفسي».

ومد يده فوق الطاولة وقال:

«من الصعب ان تصدقي لكني انا فعلا بيل سميث».

وابتسمت له سامنتا فيما شعرت انه ابقى يدها بين يديه مدة اطول مما تفرضه مجرد اللياقة ثم قالت:

«سامنتا داوليش».

«سامنتا... احب هذا الاسم ولم اتعرف على شخص يحمله من قبل».

«لا اظن انني تعرفت على شخص اسمه بيل سميث من قبل».

ضحكا سوية. وفكرت سامنتا ان الأمور بينهما تسير على احسن وجه.

قبلت دعوة بيل سميث للتنزه على التلال الجنوبية للمدينة من دون تردد واعترفت لنفسها انها نسيت بارني تماماً. قادها بيل سميث في سيارة ضخمة ومريحة، وهو اسلوب السفر الذي اعتادته وتفضله على خطوط السكة الحديدية البريطانية. ثم عادا الى الفندق لتناول العشاء.

رفض صديقها الجديد الابتعاد عنها خاصة بعد ان انتبه الى نظرات احد النزلاء التي حامت حولها طيلة العشاء فوافقت سامنتا على تمضية السهرة برفقته ايضاً. رقصا سوية ثم تمشيا على الشاطىء يتحادثان في شتى المواضيع وعرفت سامنتا اخيراً انه اسكتلندي.

عادا الى الفندق في ساعة متأخرة من الليل وشعرت سامنتا بمزيج من السعادة والارهاق. ودخلت غرفتها واضاءت النور واذ بها تقف مدهوشة وتحبس انفاسها. رأت علبة من الحلوى على الطاولة المجاورة لسريرها وقد تسبب واضعها في ازاحة سماعة الهاتف من مكانها وكانت الحلويات من النوع الذي تفضله. اما السرير فقد اكتسى بباقة من الزهور عبق جو الغرفة بعطرها.

وقفت لثوان عدة تتأملها وتكهنت بهوية مرسلها ولكن قبل ان يتسنى لها التحقق من ذلك سمعت قرعاً على الباب.

كان بيل سميث هو الطارق وبدأ يعتذر لها حين فتحت الباب وكأنه ظن انها منزعجة لقدومه وتطفله عليها وهمس قائلاً:

«اني آسف ان اطرق بابك في مثل هذه الساعة من الليل ولكني تلقيت لتوي مكالمة من مكتب الاستقبال تعلمني ان هاتفك مشغول وهم عاجزون عن الاتصال بك وقد علموا بقدومنا سوياً فارادوا اخبارك انك تلقيت بعض الأغراض في المساء».

وتخطاها بنظرة باتجاه الأزهار ثم قال:

«آه. لا بد انك علمت بالأمر».

«نعم شكراً لك».

قطب حاجبيه لبرهة وكأنه مستاء للفكرة ثم قال:

«لا بدّ ان يكون قد ارسلها احد المعجبين».

ابتسمت سامنتا وقالت:

«ليس فعلاً. بل اظن انه صديق قديم كنت على وشك ان اقرأ البطاقة حين طرقت بابي».

والقت نظرة لا شعورياً على البطاقة وتعرفت بسهولة على خط بارني العريض والجريء».

وقرأت بصمت ما كتب على البطاقة.

«عزيزتي، لم تبق سوى ايام قليلة تفصلنا عن الثاني عشر من الشهر يا حبيبتي. الامضاء، بارني».

قلبت البطاقة بسرعة بين اصابعها لكنها لم تستطع منع بيل سميث من قراءة الكلمات، وسمعته يقول:

«انه اكثر من صديق قديم طبعاً».

تنهدت بعمق وكأن مشاكل الدنيا جميعها تراكمت على كتفيها:

«انه. انه نوع من حب قديم. لكنه يمتلك روح فكاهة غريبة».

«آه فهمت».

«شكراً لك لقدومك يا بيل».

رفع كتفيه وبدا اقل سعادة من قبل حين رافقها الى غرفتها وقال:

«لقد فعلت ما طلب مني. فهم عجزوا عن اخبارك اثناء صعودنا الى الغرف وارادوا التأكد من ايصال الخبر اليك».

«شكراً لك مجدداً يا بيل».

تردد لحظة ثم قال:

«اما زلت على رأيك في مرافقتي الى المنتزه صباح الغد؟».

«طبعاً يا بيل».

«حسناً».

سمعته يتنفس الصعداء ثم قال:

«خشيت للحظة ان يفسد تدخل هذا الرجل مشاريعنا».

«لا. ابداً. اني متلهفة لمرافقتك».

عاد بيل الى غرفته واقفلت الباب بعد رحيله تتردد بين الغضب والابتسامة. ادركت انه بات من الصعب عليها التخلص من شبح بارني بعد ان شرع بالتصرف على هذا النحو. تناولت الازهار وتنشقت عبيرها الممتع واعترفت لنفسها ان بارني يعرف حقاً مدى شغفها بازهار الزنبق والريحان.

هبطت سامنتا الى صالة الطعام في الصباح التالي لتناول الافطار وتفحصتها ببعض القلق لكنها لم تجد اثراً لبارني.

كانت تخشى ان يكون قد لحق بها بعد ان عرف مكان وجودها.

توقعت ان تجد شيئاً الى جانب طبقها لادراكها ان بارني مصمم على متابعة التودد اليها وارتاحت حين لم تجد اية ازهار او هدايا اخرى لكنها حين عادت الى الفندق لتستعد للغداء ناولها موظف الاستقبال علبة صغيرة واخبرها مبتسماً ان رجلاً قد تركها لها اثناء غيابها.

احتارت سامنتا بين قبول الهدية او رفضها لكنها كانت فضولية

لمعرفة محتواها فأخذتها الى غرفتها وفتحتها.

كانت الهدية عبارة عن مِنجد من الذهب الدقيق السبك ينفتح ليظهر صورة شمسية غير ناجحة لباري ظنت انه اخذها خصيصاً لهذه المناسبة. تأملت الصورة لبضع دقائق وعجزت عن السيطرة على ارتجاف انامله اثناء قراءة الكلمة المرافقة للصورة والتي كتبها باري بخط يده:

«مع حبي الخالص. باري».

هزت رأسها واعادت طيّ الورقة ووضعتها والمنجد في العلبة الجلدية ثم في حقيبة يدها ولم تزل مترددة بين قبول الهدية ورفضها.

لم تخبر بيل سميث عن الهدية حين لاقاها لكنه سألها عن اخبار ما سمته بحبها القديم. فاكتفت بهز رأسها وانتقلت بسرعة الى موضوع آخر.

سألها اثناء العشاء ان كانت راغبة في الرقص ووافقت سامنتا بلهفة فهي شغوفة بالرقص لكن باري لا يشاركها شغفها هذا فنادراً ما كانت ترقص معه.

«سوف يسعدني ان ارقص».

وابتسم مسروراً ثم قال:

«في مكان لطيف ورومنطيقي. ارجو الا تظني انني استعجل الأمور لكن لم يبق امامي سوى يومين قبل عودتي الى المنزل».

«تسكن في اسكتلندا اليس كذلك؟».

أومأ ايجاباً ثم قال:

«في قرية صغيرة تدعى بارشيل ان ذهبت اليها لوجدت انها قرية مملّة للغاية».

لكن سامنتا هزت رأسها وقالت:

«انا متأكدة من العكس. احب اسكتلندا كثيراً ولقد امضينا

العديد من اجازاتنا فيها حين كنا اصغر سناً».

«برفقة عائلتك؟».

اخفضت عينيها مرتبكة فهي لا تحب الكذب لكنها ترفض التطرق الى موضوع باري مجددا فقالت:

«مع بعض الاصدقاء».

انحنى بيل باتجاهها وغطى اصابعها وهمس:

«ارجو ان تأتي لمشاهدة بارشيل يوماً فان كنت تحبين اسكتلندا فسوف تعشقين بارشيل».

وابتسمت سامنتا وقد طرأت فكرة مفاجئة وجريئة على ذهنها فقالت:

«ربما اتيت في المستقبل القريب. مضى وقت طويل على زيارتي الأخيرة لاسكتلندا».

«هل انت جادة؟».

«نعم».

«ولكن لم اكن متأكداً... هل لديك وظيفة أو عمل يضطرك الى العودة؟».

«كلا. فأنا ما يسمى عادة بسيدة متفرغة وفي الوقت الحاضر اكتفي بالسفر عبر البلاد على متن قطارات الخطوط البريطانية».

كان ما يزال محتفظاً بيده على يدها لكنه راح ينظر الى غطاء الطاولة الناصع البياض ثم سألها اخيراً:

«هل تقبلين العودة برفقتي نهار الخميس؟».

وتسارعت خفقات قلب سامنتا كالمجنونة فيما فكرت في العودة فهي تجهل كل شيء عن هذا الرجل. صحيح انه لطيف جداً وجذاب وصريح لكن من الغباوة ان ترافقه الى اسكتلندا بناء على معرفة يومين فقط. وتمتمت مترددة:

«لا ادري!».

شدد قبضته على يدها وقال لها متوسلا:

«ارجوك. لا تكوّني فكرة خاطئة عني، فعائلتي موجودة هناك وانا متأكد من انها سترحب بك. نادراً ما يزورونا احد».

ولكن هل انت متأكد من انهم لن ينزعجوا لمجيئي؟».

بدأت تميل اكثر واكثر نحو قبول الدعوة خاصة انه لن يسهل على بارني اللحاق بها.

رفع بيل سميث كتفيه العريضتين وقال:

«ليس هناك سوى والدي وابن عمي. وهما ابعد مما يكون عن النساء ونادراً ما نتلقى زيارة امرأة باستثناء السيدة ماغس وهي التي تعنى بشؤون المنزل».

«تبدو لي الفكرة رائعة».

«وهل تأتين؟».

نظرت اليه سامنتا وقد ساورها الشك برغم اغراء فكرة مرافقته وقالت له مبتسمة بحزن:

«لست اكيدة من صواب فكرة ذهابي معك فمعرفتي بك تعود الى يومين فقط يا بيل. وقد يكوّن الناس، وعائلتك بصورة خاصة انطباعاً خاطئاً عني».

امسك يدها باسلوب صريح هذه المرة والتفت اناملة حول راحتها واعترف لها:

«هذه هي المرة الأولى التي ادعو فيها فتاة لمرافقتي الى المنزل يا سامنتا. انت شخص فريد بالنسبة اليّ».

وابتسمت ثم قالت:

«وانت لطيف جداً».

لم تنتبه الى تقطيب حاجبيه امتعاضاً للصفة التي نعتته بها.

اخبرها بيل سميث في الصباح التالي انه مضطر للذهاب الى لندن للبحث في بعض القضايا المتعلقة بعمله والبقاء فيها النهار بكامله ولكن وعدها بالتفرّغ لها نهار الغد بكامله واقترح قائلا:

«بامكاننا التنزه غداً في التلال مرة اخيرة. ما رأيك؟».

«عظيم».

كانت الشكوك بدأت تساور ذهن سامنتا حول صواب قرارها بمرافقة بيل الى اسكتلندا لكنها كانت قد حصلت على عنوان منزله واخبرت عمها نيكولاس انها سوف تقصده قريباً.

شعرت ان ابتعادها عن بارني يتيح لها بلورة الأمور في ذهنها واتخاذ القرار النهائي حول قضية زواجها، وهي ترفض حالياً فكرة الزواج رفضاً قاطعاً. وقد اخبرت العم نيكولاس بذلك لكنها كانت تشعر بحنين غريب الى المنزل والعيش بالقرب من بارني وتجد صعوبة في تجاهل هذا الاحساس بخفة روح.

اعترفت في قرارة ذاتها انها اشتاقت لبيل اثناء تغيبه وراحت تتنزه بمفردها على الشاطىء جاذبة انظار الشباب كالعادة بفستانها الأزرق الفاتح اللون الذي كان يبرز بشرة ذراعيها وظهرها السمراء الناعمة وبشعرها الذهبي الأحمر المتدلي على كتفيها.

رأت مجموعة من الشباب تتجه نحوها وسمعت دوي صفارات الاعجاب التي اطلقوها نحوها، لكنها لم تجد سبيلا لتفاديهم وشعرت بالحرج الشديد حين اقتربوا منها وامطروها بملاحظاتهم البذيئة.

شعرت فجأة بذراع تلتف حول خصرها ورأت تعابير وجوه الشباب الظافرة تتحول فجأة الى مرارة ساخرة، وتنفست الصعداء لادراكها لا شعورياً ان بارني هو الذي انقذها من هذا الموقف وسمعته يسألها:

«ترى ما حدث لصديقك هذا الصباح؟».

«تعني بيل؟ لقد ذهب الى العاصمة لانجاز بعض الأعمال».

«وهل اسمه الحقيقي بيل سميث؟».

ثم ضحك لكن سامنتا عبست في وجهه وقالت:

«اجل. ولا ارى ما هو مضحك في اسمه. فهو اسم كغيره».

«سمعت انه اسكتلندي».

«يبدو لي انك اتصلت بالعم نيكولاس».

«نعم. فقد كلمني هذا الصباح».

سارا سوياً لبضعة امتار وراحت تتساءل عما اذا كان لدى بارني اعتراض على ذهابها الى اسكتلندا مع بيل فمن المؤكد ان العم نيكولاس اخبره عن مشروعها. ولم يخطر في بالها ازاحة يده عن خصرها. وقال لها فجأة:

«اود التحدث اليك».

ودفعها الى مبنى صغير يحتمي فيه الناس من المطر عادة وقال لها:

«اجلسي».

لم يترك لها المجال للعصيان فجلست في زاوية من المبنى ويداها متشابكتان على حضنها تتفادى النظر اليه وكأنها خائفة منه.

تراءى لها وجهه الداكن ولمست فيه مسحة من القساوة نادراً ما رأتها وامسك بيدها وارغمها على النظر اليه قبل ان يتكلم قائلاً:

«هل انت جادة في قرارك بمرافقة هذا الرجل الى اسكتلندا؟».

عضت سامنتا على شفتها لقساوة سؤاله وقالت:

«نعم، نعم انا جادة».

«هل جننت؟ انت تجهلين كل شيء عن هذا...».

«ان كنت ستطلق عليه اسماء على هواك، فلن اتكلم».

وقطبت سامنتا حاجبيها محاولة اخافته لكنه ضحك وقال:

«لا تحاولي اخافتي بعبوسك في وجهي. تشبهين قطة صغيرة لا

تخيف ابداً».

«اتركني وشأني».

وسحبت يديها من قبضته.

«ان كنت عازمة على السفر الى مجاهل البلاد برفقة غريب اظن ان هذا من شأني ايضاً. فلي بعض الأفضلية عليك».

«لم يعد لك اي افضلية عليّ».

«آه فهمت».

حدق فيها بثبات لبعض الوقت وقد فاضت عيناه الداكنتان جدّية ثم قال:

«حسناً، لكنك لن تفلتي مني بهذه السهولة يا عزيزتي فليس من عادتي التنازل عن اي شيء بهذه السهولة».

«اي شيء؟! انت تتعلق بالشيء وكأني جزء من مؤسسة داوليش وفوستر».

«نعم».

«انا لست شيئاً يتداوله الناس كأسهم الشركة اريد اتخاذ القرار بذاتي يا بارني وارفض الانجراف بمخططات عمي ووالدتك التي تدعو الى زواجنا من اجل تأمين مستقبل الشركة».

نظر اليها باستهجان وكأنما لم تخطر بباله هذه الفكرة ابداً وسألها:

«وهل هذا هو المنظار الذي تقوّمين من خلاله الأمور».

«نعم، طبعاً. فالكل يتوقع منا ان نتزوج مذ بلغت سن الرشد ولقد سئمت هذه الحال».

«يبدو لي اني اعتُبرت ايضاً حجراً من احجار اللعبة، في هذه الحال ينطبق عليّ ما ينطبق عليك».

«اذن ينبغي ان تشكرني لاتاحتي لك الفرصة للافلات من هذه اللعبة».

ومد يده نحو يديها وامسكها من غير ان تمنعه من ذلك وشعرت بحاجة ماسة الى البكاء في هذه اللحظة وسمعته يقول لها بصوت هادئ:

«اظن اني لست راغباً في الافلات منها».

صمتت سامنتا للحظة فيما تسارعت خفقات قلبها كالمجنونة وتمنت لو رافقت بيل الى لندن في الصباح وتفادت بذلك هذا اللقاء والشكوك التي ولّدها. لكنها سمعت نفسها تقول ببطء.

«اني ذاهبة الى اسكتلندا برفقة بيل يا باري انا بحاجة الى التفكير في العديد من الأمور».

«وهو لن يتوانى عن استغلال الفرصة التي سنحت له. آه! يا سامنتا لا تتصرفي بهذا المقدار من الحماقة».

«كف عن التصرف وكأنك مالك أمري. سأرافق بيل وهذا قرار نهائي».

نهضت من كرسيها فيما مكث باري ينظر اليها بعينين قاسيتين فاضتا عزماً وقال لها:

«ليس نهائياً يا عزيزتي، لم انته منك بعد».

٣- عنترة

«سوف اتوقف- عفواً نتوقف، لقضاء الليل في بلدة بوينز هل تعرفينها؟».

كان بيل يتكلم اثناء مرورهما على طريق عصفت بها الرياح.

«انها في منطقة البحيرات اليس كذلك؟».

كانت سامنتا قد نسيت ان الرحلة الى اسكتلندا تستغرق اكثر من يوم وتقع منطقة البحيرات في منتصف الطريق ويرتاح فيها معظم المسافرين الى اسكتلندا.

«انها قرية رائعة وهي اكثر هدوءاً من غيرها في منطقة البحيرات وفيها مناظر طبيعية لا تقل جمالا عنها».

«آه- مضت سنوات عدة على زيارتي الأخيرة للبحيرات. واظنّ انها المرة الأولى التي اذهب فيها الى بوينز».

صمتت لوهلة تفكر انه لا بد ان يكون بيل قد حجز مسبقاً غرفة له فيما قد تجد صعوبة في ايجاد غرفة لها فقالت:

«اتساءل ان كنت سأوفق بغرفة لنفسي اذ تحجز الغرف مسبقاً عادة اليس كذلك؟».

التفت بيل للحظة نحوها ورأت ملامحه الوسيمة وقد فاضت بتعابير لم تعهدها من قبل ثم قال لها بلطف:

«ليس دائماً. لكني فضلت التأكد من الأمر فخابرت فندق ستاغ

وحجزت لك غرفة فيه حالما ايقنت انك سوف ترافقيني - لم اشأ ان تغيري رأيك في اللحظة الأخيرة».

«شكراً لك على اهتمامك بي».

لم تكن متأكدة من تحمسها لمحاولة بيل تولّي كل شؤونها بنفسه لكنها كانت عاجزة في الوقت الحاضر عن القيام بأي عمل حيال هذا الأمر وسمعته يقول لها:

«اهلاً وسهلاً بك».

لم ترق لها اللهجة التي استعملها فقالت:

«لا- لن انزل ضيفة عليك لكني شاكرة لك حجزك غرفة لي».

«ارجو ان تعتبري نفسك ضيفتي يا سامنتا، فانا الذي دعوتك».

«لكني قادرة على دفع ما يتوجب عليّ. وافضل ذلك يا بيل. ان كنت لا تمانع».

قطّب حاجبيه للحظة ثم رفع كتفيه مذعناً، وقال:

«لك ما شئت، فالمهم لي هو رفقتك».

كان الفندق صغيراً وقديماً وقد اضنى الجوع سامنتا بعد هذه الرحلة الطويلة فالتهمت وجبة الطعام المقدمة لها بشهية ثم خرجا سوية للتمتع بغياب الشمس فوق البحيرة. وراحت سامنتا تتأمل القوارب الصغيرة المتأرجحة على صفحة مياه البحيرة الهادئة وعلى متنها بعض السياح وقد جلسوا يتمتعون بجمال المناظر الطبيعية من وسطها، ورغبت في ان تفعل مثلهم.

سمعت بيل يقول لها وكأنه قرأ افكارها:

«ما رأيك في ان نلحق بهم؟».

ابتسمت سامنتا وأومأت ايجاباً:

«عظيم- تبدو لي فكرة رائعة».

جلسا في مقاعدهم بين عدة رجال ونساء آخرين. بدوا كأنهم

يبحثون عن جوّ ومنطيقي يعيش فيه كل واحد منهم احلامه برفقة حبيبه. وابتسم لها بيل حين لاحظت الأزواج ومدّ ذراعه بتردد على حافة القارب من ورائها.

لم تعترض على حركته لكن قلبها راح يخفق بسرعة جنونية حين راحت انامله تداعب ذراعها بلطف بعد ان ابحر الزورق الى عرض البحيرة التفتت نحوه ونظرت اليه مرتبكة فقال لها:

«المنظر رائع اليس كذلك؟».

«اجل رائع».

عادت سامنتا الى تأمل الطبيعة من حولها وغرقت في سحر الجبال المحيطة بالبحيرة والمكسوة بالغابات الظليلة فيما انعكست اشعة الشمس المطفأة تدريجاً على صفحة الماء الساكنة وكأنها من الذهب الصافي وارتاح جسم سامنتا لا شعورياً على ذراع بيل لكنها شعرت فجأة بانامله تداعب اذنها اليمنى فالتفتت نحوه وصاحت:

«بيل».

صدمتها فجائية حركته خاصة انها كانت مسترسلة في التفكير بيارتي تتساءل هل توقف عن ملاحقتها وعن حاله ومكانه، واذ بوجه بيل الوسيم وابتسامته تنتشلها من احلام اليقظة وتعيدها الى الواقع. وسمعته يقول لها بصوت خافت وهو يدل الى الناس من حولهم:

«يبدو لي ان الجميع يفعلون ما فعلت».

«لكننا نختلفان عنهم».

«اظن انك على حق».

بدا خائب الظن وشعرت ببعض الذنب لتأكدها من انها مستمرة في اعطائه الانطباع الخاطىء عن نواياها بمرافقتها له فابتسمت ورأته يستجيب بسرعة اذ قال:

«هل انت نادمة على مجيئك برفقتي».

«لا يا بيل. كنت بحاجة الى الابتعاد الى مكان حيث. . .».
وكادت ان تكمل جملتها بـ«الى مكان حيث لا يقدر بارني اللحاق بي» لكن تذكرت ان بيل يجهل تماماً حقيقة علاقتها ببارني.
«رأيتك غارقة في الافكار. هل من امر يقلقك؟».
«لا ابداً فالعم نيكولاس يعلم بمكاني او بالأحرى انه يعرف انني في طريقي الى اسكتلندا برفقتك».
«وهل مانع في ذلك؟».
«كلا، لم يمانع».
تفادت النظر اليه وهي تجيب فقد اعترض العم نيكولاس بشدة على قرارها لكنها اصرّت انها لن تقبل الزواج على النحو المقرر، وانها بحاجة الى التفكير به اولا ثم تقرر نهائياً ان كانت تريد الزواج من بارني او لا، وهي تظن ان الجواب سيكون نفياً وايقنت ان بارني سيلقى كل التشجيع على الاستمرار في ملاحقتها من قبل العم نيكولاس الذي كانت تعرف قوة ارادته وعناده.
سكت بيل قليلاً برغم يقينها انه لم يقتنع تماماً بكلامها ثم ساعدها على الترجل من الزورق وعادا الى الفندق.
جلسا في البهو المريح وراحا يتكلمان عن مواضيع شتى لكنهما تفاديا الخوض في اسباب مجيء سامنتا الى اسكتلندا. وكانت تفضل عدم التطرّق الى الموضوع في الوقت الحاضر رغم شعورها بتململ بيل لهذا الأمر.
صعدا الى الطابق العلوي في ساعة متأخرة وودعها بيل عند باب غرفتها وعانقها بلطف قائلاً:
«طابت ليلتك يا سامنتا واحلاماً سعيدة».
«طابت ليلتك يا بيل».
دخلت غرفتها واوصدت الباب واتكأت لبعض الوقت عليه فيما

راح قلبها يخفق بسرعة ولم يكن مجهود تسلق السلم هو سبب الخفقان الوحيد. شعرت سامنتا انه ينبغي الا تتعلق كثيراً ببيل قبل ان تنفصل نهائياً عن بارني وعضّت على شفتها فيما راحت تطأطىء رأسها حائرة. تهوّرت في مرافقتها بيل الى اسكتلندا وهو لن يستطيع الامتناع عن تفسير علاقتها به على انها تتعدى مجرد صداقة عابرة وسوف تجد نفسها في وضع معقد من جديد.
وسمعت فجأة قرعاً خافتاً على بابها فقفزت لذهولها ووقفت مشدوهة لبعض الوقت تحدق بالباب قبل ان تقرر فتحه.
لم يكن بيل هو الطارق بل بارني الذي وقف في الباب يبتسم وكأنه يعتبر زيارته لغرفتها بعد منتصف الليل كأمر طبيعي جداً. وراح قلبها يخفق بشدة ولم تكن متأكدة ابداً ان كان الغضب او الانفعال وراء توهّج خديها.
دفع بارني الباب محاولاً دخول الغرفة لكنها تصدّت له قدر المستطاع فيما برقت عيناها بفورة الأحاسيس التي اجتاحتها تلك اللحظة. وهمست له بقوة خشية ان يسمعها نزلاء الغرفة المجاورة:
«اذهب عني».
«اردت اعلامك بوجودي هنا».
كان لا يزال يبتسم فهزت سامنتا رأسها وقالت متوسلة:
«ارحل، واتركني وشأني. وكيف بالله علمت بمكاني؟».
برغم غضبها، شعرت بفضول لمعرفة الاسلوب الذي استعمله للعثور عليها بهذه السرعة.
«هذا سهل جداً. طلبت من بريغس ان يحضر سيارتي الى برايتون البارحة ولحقت بكما الى هنا».
«لا يحق لك ملاحقتنا».
«طبعاً يحق لي ذلك حين يهرب برفقة خطيبتي».

وصمت لوهلة وكأنه اكتشف امراً ما ثم تابع:
«وهل اخبرته عني؟».
«لا. . . لا. طبعاً لم اخبره».
وابتسم بسخرية وقال:
«آه فهمت. انا غرض من السهل تصريفه اليس كذلك؟».
«لم اعد خطيبتك».
ابتسم وراح يحدق بثغرها وكأنه مسحور به وقال:
«لم تعودي خطيبتي؟».
مد ذراعيه وضمها الى صدره يعانقها بقوة لكنها قاومته بشدة وافلتت منه وقالت:
«ارجوك ان ترحل عني».
«الى غرفتي؟ طبعاً. . .».
«كلا اريدك ان ترحل بعيداً عني. كف عن ملاحقتي يا بارني لا حق لك ان تلاحقني في وقت احتاج فيه الى بلورة الأمور في ذهني».
«ان كانت بلورة الأمور في ذهنك تقتضي الانفصال عني فاني سألاحقك الى جميع انحاء بريطانيا ان دعا الأمر يا عزيزتي. لن ادع هذا البطل الاسكتلندي يصطادك امام عيني».
«انت مخطىء يا بارني فهو يكتفي بمساعدتي على التفكير».
«آه!!».
«أسكت».
«عفواً».
ابتسم لوهلة ورمق الممر الساكن ثم قال:
«طابت ليلتك يا حبيبتي. الى اللقاء في الغد».
«لا يا بارني لا».
سار في الممشى ثم التفت ولوّح لها بيده فشعرت بيأس شديد

يتنابها.
حين نزلت سامنتا في الصباح التالي لتناول الافطار كان بيل قد سبقها الى القاعة وراح ينظر اليها بفضول وما ان جلست حتى سألها:
«هل قضيت ليلة مريحة؟».
«نعم- شكراً».
صبّ بعض القهوة فيما راح ينظر اليها قائلا:
«الم تسمعي ضجة في الممشى بعد افتراقنا بقليل؟».
«ضجة؟».
«اصوات. سمعتها وكان مصدرها قرب غرفتك، بدا لي وكأنه جدل بين شخصين لكن لا استطيع الجزم لانهما كانا يتهامسان- الم تسمعي شيئاً؟».
ترددت سامنتا لوهلة وشعرت ان بيل لا يزال رجلا غريباً عنها برغم موافقتها على السفر الى اسكتلندا برفقته والتعرف على عائلته. وما ستكون ردة فعله متى اخبرته عن بارني؟
«اظن- اظن اني سمعت شيئاً».
«هم. . هم! ربما كان هذا الرجل وزوجته يتجادلان فهي تسكن في الغرفة المجاورة لك».
«ربما».
تمنت في قرارة ذاتها لو تناسيا الموضوع لكنها شعرت طيلة الافطار بالذنب حيال بيل. وكانت تراقب بقلق مدخل القاعة منتظرة دخول بارني الذي وصل لحظة انتهائها من الأكل. واستغلّ بارني فرصة استدارة بيل ليلوح لها بيده لكنها تجاهلت حركته.
لكن مجيء بارني حرّك من جديد شعورها بالذنب نحو بيل فتنهدت بعمق وقررت الغوص في صلب الموضوع فقالت:
«بيل».

نظر اليها نظرة متسائلة ثم قال:
«ما بك؟».
«لست متأكدة من صواب فكرة مرافقتي لك وخاصة الى بيتك».
تفحصها مطولا ثم قال:
«انا متأكد الآن من ان هناك ما يقلقك».
«لا ليس فعلا انما اظن، آه اظن اني لم اكن صريحة كلياً معك يا بيل».
«صريحة؟ وما قصدك..؟».
«انا..».
وراحت تحدق بفنجان القهوة الفارغ امامها تحاول جاهدة ايجاد الكلمات المناسبة للتعبير ومد بيل يده وامسك اصابعها المرتجفة وقال:
«انت مشغولة البال يا سامنتا. ادركت هذا الأمر منذ غادرنا برايتون البارحة».
«اني آسفة... لم تكن رفقتي مسلية اليس كذلك؟».
«لا بالعكس- لكن هناك شيء، يقلقك واود المساعدة ان امكن ذلك».
«انت لطيف جداً يا بيل».
«لقد سبق ان قلت لي هذا».
رمقت بارني قبل ان تتكلم ورأته منهمكاً في تناول افطاره غير مكترث بها.
«لم اكن صادقة تماماً معك يا بيل».
«فهمت».
«افهم تماماً ان غضبت مني».
وحدق بها يتفحصها لوهلة ثم قال:

«لا اظنك تفرين من زوج مزعج اليس كذلك؟».
«لا. معاذ الله».
وابتسم قائلا:
«آه».
«انه خطيبي بالحقيقة».
رمقها متعجباً وكأنه يحاول معرفة اذا كانت جادة ام لا ثم قال:
«خطيبك؟».
«نعم. او بالاحرى كان خطيبي. وانا فسخت الخطبة».
«عظيم- وما سبب القلق اذن. فأنت حرة طليقة الآن واين المشكلة؟».
«لست متأكدة من كوني اصبحت حرة..».
«لكنك قلت لي لتوك انك فسخت الخطبة».
«صحيح».
صمتت لوهلة تتساءل عن الطريقة التي تمكنها من التفسير له ان بارني رفض فسخ الخطبة بينهما. وادركت ان الأمور سوف تسوء ان قرر بارني اللحاق بها الى منزل بيل وهذا ممكن. فأصرّت على كلامها قائلة:
«فسخت انا الخطبة لكن بارني لا يقبل بهذا الأمر».
«بارني؟ آه انه الرجل الذي ارسل لك الأزهار».
قال بيل وقد تذكر الاسم الذي قرأه على البطاقة في فندق برايتون.
«نعم، انه الرجل ذاته».
«ولكن هل أفهم منك انه كان موجوداً هناك في الفندق في برايتون؟».
«لا، ليس في الفندق نفسه، اقتفى اثري الى بلدة صغيرة في

سيطرت على نفسها وقالت:

«اظن ذلك – فهو داكن الملامح».

«وهو يغازل بالنظرات تلك الفتاة الجالسة الى الطاولة المجاورة له».

«هذا هو حتماً بارني».

نظر اليها معجباً وقال:

«لكن ان كان متلهفاً الى استعادتك فلماذا يتصرّف على هذا النحو؟».

«هذا خارج عن ارادته. ولكن اللوم لا يقع عليه بكامله فالنساء يلاحظنه دائماً وهو يظهر لهن انه لاحظهن ايضاً».

بدا بيل مستاء جداً وتساءلت سامنثا اذا كانت قد اعطته انطباعاً خاطئاً عن بارني اذ سمعته يقول:

«ارغب في ضربه ضرباً مبرماً».

«اظن انه تعوّد على وجودي بالقرب منه وعلى اعتباري جزءاً من الشركة».

«من الشركة؟».

«نعم، فالوصيّ عليّ، عمي نيكولاس، ووالد بارني اسسا شركة تجارية للتصدير منذ سنوات وهما شريكان وصديقان. وقد اصبح بارني الآن شريكاً ثالثاً لها والجميع يؤلفون عائلة كبيرة سعيدة وهنا تكمن المشكلة فالكل كان يعتبر انني سوف اتزوج من بارني حالما ابلغ السن المؤهلة لذلك».

«ولقد بلغت السن الآن».

«لسوء الحظ. بلغت الواحدة والعشرين ولكني لست حرّة رغم ذلك».

«لا، مستحيل. في عصرنا وايامنا هذه الم يترك لك المجال للتعبير

عن ارادتك الحقيقة؟».

«اظن اني كنت استطعت ذلك لو فكرت فيه لو لمرة لكني لم افعل. فكان الجميع يقولون ان سامنثا وبارني سيتزوجان يوماً واظن اني كنت منجرفة مع التيار».

«الى ان ترددت وساورك الشك».

«نعم، منذ يومين واثناء تجربتي لفستان الزفاف نظرت الى نفسي في المرآة وصحت: لا، انهم يعبثون بي كقطعة من العجين، ولا اقوم بأي جهد للتفكير بذاتي وسوف اعيش حياة رتيبة مملة فانتابني الذعر ولذت بالفرار».

«لكن هذا الرجل لحق بك».

«نعم – وقبل ان يتسنى لي الابتعاد كثيراً فالمشكلة هي انه يعرفني معرفة تامة وهو يستبق افكاري منذ ثماني عشرة سنة وتعود على تصرفاتي».

مد بيل بيده من جديد يحاول ان يؤاسيها وعصر اصابعها وقال:

«لا يحق لاحد ان يتعوّد عليك. فاذا كنت غير راغبة في الزواج منه فاني سأضمن لك ذلك».

«انت...».

توقفت عن متابعة الكلام حين رأته يعبس في وجهها وهددها قائلا:

«ان قلت لي مرة اخرى اني لطيف اضطررت الى أن أثبت لك العكس».

«اني آسفة».

ضحك وهز رأسه ببطء ثم قال:

«بدأت اشعر وكأني عنترة بن شداد. احاول انقاذك من الموت».

ونظرت سامنتا مجدداً الى بارني الذي راح يتأملها بابتسامة طفيفة وسرية على ثغره وكأنه يقول: «كنت اجهل ان الأمر سيسوء الى هذا الحد».

٤- سارق الزوجات

راح بيل ينظر الى سامنتا كما اعتاد بارني ان يفعل لكن عينا بيل كانتا اكثر تسامحاً وتراءى لسامنتا انها لمست فيهما محاولة جادة لتفهم دوافعها في هذه اللحظة اذ كانت تقول له:

«لا لأنني ارفض مرافقتك الى بيتك لكن... اظن انه لا يحق لي ان اشركك في مشاكلي الخاصة».

كان بيل يقود السيارة على طريق ريفيّ مقفر مما اتاح له فرصة الالتفات نحو سامنتا بين الحين والآخر اثناء الكلام وقال يذكرها:

«لا تنسي اني مزجوج فيها كوني اساعدك على الهرب».

«وانا شاكرة لك يا بيل».

كانت صورة بارني لاحقاً بهما في سيارته السريعة تمنعها من التمتع بالطبيعة الخلابة من حولها وسمعت بيل يقول لها:

«لا ضرورة لشكري فانا مسرور جداً بدور الفارس الذي اقوم به ما دام بارني لم يلحق بنا».

ورمق المرآة ثم اضاف:

«خيل لي رؤية سيارة وراءنا على مسافة قريبة».

«انه حتماً بارني».

قطب حاجبيه ثم قال:

«لقد سوي الأمر اذن. ان كان بارني اقرب منك الى هذا الحد

فاني لن اتركك بمفردك في النزل. عليك مرافقتي الى البيت».

«لا يا بيل ارجوك لا. افضّل الا آتي الى بيتك فانت لا تعرف بارني. لا اريد ان يأتي ويقوم بعمل غير لائق في بيتك وفي حضور عائلتك».

«اتظنين انه قد يقدم على عمل كهذا؟».

وهزت برأسها ثم اعترفت قائلة:

«لست ادري لكن افضّل عدم المجازفة يا بيل ارجوك».

«انا أفضّل ان تأتي الى البيت حيث يمكنني مراقبتك عن كثب».

«كلا يا بيل. انك تغمرني بلطفك لكني لن ازج عائلتك في مشاكلي. انا المسؤولة عن رعونة تصرفات بارني الحالية واعرف كيف اواجهها بمفردي».

تمنت لو كان ما قالته صحيحاً لكنها شعرت انه لا حق لها في اشراك بيل او عائلته بخلافاتها مع بارني فابتسمت لبيل ووضعت يدها على ذراعه ثم قالت بصوت ناعم:

«سأكون على ما يرام في الفندق المحلي وبامكاني اللجوء اليك عند الضرورة».

«ارجو ان تلجأي اليّ فقد غدوت شخصاً مهماً جداً في حياتي يا سامنتا».

ابتسمت مرتبكة بعض الشيء فهي تدرك ان بيل يتوقع شيئاً واحداً منها مما يعني احتمال انتقالها من ورطة الى ورطة وهذا ما لم تكن مستعدة له اذ يكفيها ما تعانيه مع بارني.

«انت فارس نبيل جداً يا بيل وأقدّر لك هذا كثيراً».

رمقها ثم ابتسم بمكر وقال:

«ارجو الا تحسبي ان هوايتي القيام بهذا الدور. لا أدري ما انتابني لكني ادركت في اللحظة التي رأيتك فيها في فندق برايتون انك امرأة

فريدة من نوعك».

«بيل».

وقاطعها بسرعة قائلا:

«حسناً. حسناً. يكفيك ما تعانين من مطاردة بارني لك فلن استعجلك اكثر من ذلك لكني لا اريدك ان تفكري اني اساعدك الآن لدوافع انسانية فقط».

تنهدت سامنتا وقالت:

«سأتذكر كلامك».

كان نزل قرية بارشيل الصغير جميلا جداً اعجبت به سامنتا كما اعجبت بالقرية بكاملها. وقفت الى نافذة غرفتها تتأمل البيوت المتناثرة على الجبال الشاهقة ومن بينها منزل كبير من الحجر الرمادي وسط اشجار خضراء ظليلة، وهو المنزل الذي اشار اليه بيل اثناء دخولهما القرية قائلا:

«لن اكون بعيداً عنك ان احتجت اليّ. وسوف اعطيك رقم هاتفي».

تساءلت سامنتا عن عدد النزلاء الذين يتسع لهم النزل وتمنت لو امتلأت الغرف قبل وصول بارني.

سمعت دويّ محرك سيارة تتوقف امام الفندق فألقت نظرة عليها واكدت لها تشريف الاستاذ بارني ولم تمرّ دقائق قليلة حتى سمعت وقع خطى ثقيلة تصعد الدرج الخشبي وتمرّ امام غرفتها فتنهدت.

اغتسلت وبدّلت ملابسها مستسلمة لقدرها وادركت ان بارني مصمم على اللحاق بها اينما ذهبت وهي عاجزة تماماً عن منعه وما كادت تنتهي من تصفيف شعرها حتى سمعت قرعاً طفيفاً على الباب فوقفت لا تحرّك ساكناً بل راحت تحدّق في صورتها في المرآة ثم استدارت ونظرت الى الباب حائرة:

«سامنتا».

ارتاحت لكونه يتكلم بصوت خافت لكنه عاود قرع الباب بقوة اكبر من قبل فسارعت الى فتحه قبل ان ينتبه الآخرون.

رأته واقفاً امامها بقامته الطويلة وبشرته الداكنة وقد انارت ابتسامته ظلمة الممرّ وبادرها بقوله:

«مرحباً يا حبيبتي».

شعرت برغبة عارمة في الضحك لكنها تماسكت واتشح وجهها بتعبير من القساوة وقالت:

«ارحل من هنا، ارحل من هنا يا بارني والا ناديت...».

عرضت ابتسامته ووضع قدمه على العتبة ثم قال ضاحكاً:

«بيل سميث؟».

«سأنادي صاحب النزل واقول له انك دخلت غرفتي عنوة واعتديت عليّ».

هز رأسه معاتباً وضحك ثم قال:

«هذه لعبة قديمة يا حبيبتي وهو لن يصدقك ابداً».

«طبعاً سيصدقني».

لكنه استمرّ يهز برأسه وقال:

«انه على علم بكل شيء فلقد اخبرته».

«وبمَ اخبرته؟».

تراجعت مدهوشة حتى انها لم تفكر في الاحتجاج حين دخل غرفتها واغلق الباب:

«ماذا قلت له يا بارني؟».

ابتسم مجدداً وراح ينظر اليها بتهكّم مراقباً ردة فعلها:

«قلت له ان زوجتي فرّت مع رجل وأنا احاول اقناعها بالعودة».

واتسعت عينا سامنتا غير مصدقتين:

«زوجتك؟ زوجتك؟».

أومأ ايجاباً من دون ان يتوقف عن الابتسامة.

«انت... يا لك من كاذب».

«كلامي قريب الى الحقيقة. فبعد ايام معدودة ستصبحين زوجتي!».

«لست زوجتك ولن اصبح ابداً».

«انا متأكد من العكس يا حبيبتي. بعد.. آه في أي يوم نحن؟».

«لا يهمني في اي يوم نحن- لن اتزوجك يا بارني لن اتزوجك».

وقال لها بصوت ناعم وهو يتقدم خطوة نحوها:

«لقد قطعت عهداً بذلك».

وقبضت على يديها حين رأته يتقدم وقد سطعت عيناه وفاضتا عزماً، زاد من قلقها وتمنت لو كان بيل بجانبها يساعدها.

«لم اقطع ايّ عهد بل... بل...».

«ان قلت انك ارغمت على ذلك فسوف اتصرّف معك بعنف كما نصحني صديقنا صاحب الفندق».

«ماذا... ماذا قال؟».

«نصحني بالتصرّف بقساوة. يبدو ان ضرب الزوجات الفارّات من ضمن التقاليد المحلية ومن الأفضل لك ان تتذكري هذا الشيء حين تقررين استبدالي ببيل سميث».

«لا اصدق ذلك».

«لا تصدقين ماذا؟ انهم يضربون زوجاتهم؟... آه لا ادري يا حبيبتي فالاسكتلنديون رجال اشداء».

«لا اصدق شيئاً مما تقوله».

«كما اني لا اصدق انك ارغمت على الزواج مني. لقد وافقت بملء ارادتك واكره ان اترك في الكنيسة بمفردي في اللحظة الاخيرة».

«آه فهمت. لقد جرح كبرياؤك. انت لا تشعر بأي شيء نحوي، لكنك لا تحب ان تتخلى عنك امرأة وهذا هو سبب ملاحقتك لي عبر البلاد، كان يجب عليّ ان ادرك هذا الشيء من قبل».

وسألها بصوت هادىء:

«وهل انتهيت من التجول؟».

«انتهيت. بامكانك الآن العودة بمفردك الى المنزل».

«واتركك مع البطل الاسكتلندي هذا. كلا يا حبيبتي. لن ارحل الا وانت معي».

«عليك الانتظار طويلا اذن. وتوقف عن مناداتي حبيبتي».

«لماذا؟ لا تنسي انه يفترض بي ان اغازلك، وان احاصر قلعة قلبك القاسي وتعلمين اني لا استسلم بسهولة».

«آه. بارني ارجوك. لا. لا اريدك قربي».

بدا وجهه الداكن جدياً كل الجد ودنا منها الى مسافة قريبة جداً مما جعلها تضطرب. كان تسارع ضربات قلبها شيئاً جديداً لم تعرفه من قبل وقد اربكها حدوثه مع بارني. فهي لم تشعر مع بارني من قبل بأي من العوارض التي تمرّ بها الفتاة العاشقة عادة.

هزت برأسها فمد يديه نحوها ولم تتمكن من تفاديها وشعرت بذراعيه تلتفان حولها وتضمانها الى صدره:

«لا يا بارني لا. . .».

لم يأبه لصيحة التوسل هذه بل عانقها لبعض الوقت ثم ارخى قبضته، ففتحت عينيها لترى وجهه وقد فاض منه تعبير لا تعرفه. كانت قد رأته جدياً مرات عديدة وغاضباً احياناً لكن التعبير هذا كان جديداً عليها وجعلها ترتعش.

«لن يأخذك مني، تبّاً لي ان سمحت له ان يأخذك مني».

«بارني!».

«حضّري امتعتك. انني عائد بك الى حيث تنتمين».

«كلا!».

ومضت عيناه سخطاً كما لم ترهما من قبل وارتعشت خوفاً حين نظرت اليه. ثم تنهد بعمق وهز رأسه ببطء وقال:

«حسناً. . . لك ما شئت!».

«تعني انك ستعود الى المنزل وتتوقف عن ملاحقتي».

فوجئت بنفسها تشعر بمرارة لاستسلامه في هذه اللحظة وبهذه السهولة.

لكنه هز برأسه وافترّ ثغره بابتسامة عريضة حين قال:

«لا يا حبيبتي. لن اعود الى المنزل. اذا كنت مصرّة على متابعة الهرب فسألحق بك. ان كنت تودين تصعيب الأمور فلك ما شئت».

«لن يدعك بيل. . .».

لكنه استمر في هز رأسه وبدا واثقاً من نفسه الى حد كبير وقال:

«بيل سميث لديه شركة يديرها. وهو عاجز عن ملازمتك طيلة الوقت».

«هذا استبداد!».

شعرت بالدموع تكاد تنهمر من عينيها وانزعجت لاحتمال اكتشافه حالتها النفسية فهو سيعتبر الدموع علامة ضعف وهي لا تريد الظهور بمظهر الضعف امامه بعد ان قطعت شوطاً طويلا على طريق التحرر.

«لا ابداً».

«وانت كيف تترك عملك في الشركة؟ فباستطاعة بيل ان يتركه ايضاً».

وحدق بها لثوان عدة ثم قال بصوت هادىء:

«لأسباب عدة اولها اني حظيت بموافقة شريكي الكاملة، ثانيها اني اشك في ان يهمل بيل سميث عمله من اجل قضية خاسرة».

وصاحت به:

«لست قضية خاسرة. ولن اقبل بالتصرّف وكأني ملكك ولن اعود معك ابداً. اني باقية هنا».

«الى الأبد؟».

بدا كأنه عاد الى مزاجه الساخر كعادته وباتت تدرك انها لن تستطيع كبت دموعها مدة طويلة، لكنها قالت:

«ما دمت راغبة في ذلك. حتى تعود انت الى البيت».

رأته وقد شرع في الضحك بصوت ناعم وهو يهز رأسه ثم قال:

«لن اعود الا برفقتك، اذهب متى تذهبين وليس قبل».

حين اتى بيل في الصباح التالي لزيارتها بادرته قائلة بصوت يائس:

«انه مصمم على ملاحقتي اينما ذهبت».

شعرت ببعض الامتعاض لعدم قدومه ليلة البارحة لكنها كانت تدرك انه اضطرّ الى مجالسة عائلته بعد غياب طويل، وشرح أسباب عدم مرافقتها له الى البيت كما كان مقرراً.

وكررت باصرار:

«انه مصمم يا بيل. فهو عنيد اني اعرفه جيداً».

«اصدق ذلك».

قال بصوت هادىء لكنها لم تنتبه لمعنى كلامه المبيّت لكثرة قلقها ثم اضاف:

«هل تعتقدين فعلا انه سيبقى هنا؟».

وأومأت سامنتا ايجاباً:

«نعم سيبقى فهو ينفذ دائماً ما يعلن عنه. آه بيل ما عساني ان افعل؟».

لاحظت سامنتا في هذه المرّة الاضطراب على وجه بيل وتساءلت عن اسباب التحوّل الذي طرأ عليه ثم تكلّم بعد صمت طويل:

«سامنتا. . .».

كان واضحاً انه يجد صعوبة في التعبير عما يخالجه وارتعشت خوفاً حين التمست ما يدور في ذهنه:

«كنت اتكلم لتوّي مع السيد ماك في وفوجئت بفتور استقباله لي. . .».

اخفض عينيه وراح يحدق في يديه وايقنت سامنتا ما سيقوله.

«سامنتا. . بارني هذا يدّعي انه زوجك!».

ولم تتمكن من اخفاء المرارة التي شعرت بها حين قالت:

«وانت صدقته؟».

ادركت انّ بيل مستاء حتماً من اتهام الناس بانه سارق زوجات الآخرين لكنه كان بامكانه ان يصدقها هي عوضاً عنهم وسمعته يحتج قائلا:

«لم اقل اني صدقته. . .».

لكن كان واضحاً لسامنتا انه صدقه.

«لكن تصديق السيد ماك في للخبر يضعني في موقف حرج يا سامنتا».

«اظن انك على حق».

«وهو لن يتأخر عن نشر الخبر ولن يطول الأمر حتى يعلم اهل القرية برمتها اني جئت مع زوجة فارّة».

«لكني لست زوجة فارّة وانت تعلم ذلك يا بيل».

«انا اعرف ذلك ولكن من غيري يصدق؟ اني اعرف اولئك القوم منذ زمن بعيد وانا متأكد انهم سيتخذون موقفاً صارماً حيال الامر هذا».

«ماذا تعني بالضبط يا بيل؟ هل تحاول افهامي اني بت مصدر ازعاج لك».
«لا اوهمك يا سامنتا لكن ملاحقته لك من مكان الى آخر تشكل دليلا اضافياً على صحة ادعاءاته الا توافقين على ذلك؟».
«لا اوافق على شيء».
شعرت بدموع الغضب والقهر تحرق عينيها فجلست مكموشة اليدين على وشك الاستسلام لابتزاز بارني والعودة الى المنزل برفقته، لكنها سمعته يقول لها:
«وهل انت باقية هنا؟».
«لست ادري».
هزت برأسها ببطء ثم رفعت عينيها تتفحصه بصمت لبرهة فيما اخفض عينيه ثم ضحكت وقالت:
«اظن ان لا جدوى من بقائي بعد ما حصل».
نهضت من كرسيها ونظرت اليه مرة اخيرة وقالت:
«اراهن انك مسرور الآن لاني لم ارافقك الى بيتك. اليس كذلك؟».
«سامنتا. . .».
«آه. لا تشغل بالك. فهناك حتماً اماكن اخرى استطيع الذهاب اليها. وهناك حتماً فرسان آخرون متى احتجت اليهم، شكراً لمساعدتي يا بيل».
نهض بسرعة عن كرسيه ورأت وجهه يلتوي تأسفاً فيما حاول امساك يدها:
«ارجوك يا سامنتا. لا ترحلي وفي ذهنك هذه الصورة السيئة عني».
ونظرت اليه فرأت امامها رجلا لطيفاً وعادياً- لربما هذا هو السبب

الذي حال دون تمكنه من مجابهة استياء الناس الذين عرفهم طيلة حياته، وذلك بغض النظر عما يدعي، انه يكنّ لها من حب ومودة. فمجابهتهم تتطلب حقاً رجلا كبارني وهو رجل ابعد ما يكون عن اللطافة والاعتيادية.
كانت القاعة خالية من الناس حين نزلت في الصباح التالي لتناول الافطار ورماها صاحب الفندق بنظرة عدائية حين بادرته قائلة:
«هلا اعطيتني فاتورتي؟».
ولم تفتها النظرة التي القاها الى الاعلى وكأنه فكّر ببارني وسألها:
«انت راحلة اذن؟».
«نعم شرط ان استطيع الحصول على سيارة او اي وسيلة اخرى تنقلني الى اقرب محطة. هل هذا ممكن؟».
«هذا ممكن ان وجدت ويلي براون وان لم يحالفك الحظ فعليك السير الى المحطة».
«وهل هي بعيدة؟».
كانت مصممة على الرحيل رغم محاولاته المفضوحة لثنيها عن قرارها.
«حوالى الخمسة كيلومترات».
«خمسة كيلومترات».
راحت تحدق به غير مصدقة وخيّل اليها رؤية ابتسامة تعلو ثغره حين عاد الى اعماله، ثم سألها بعد لحظة:
«الا تنوين تناول الافطار قبل رحيلك؟».
«لا استطيع قطع مسافة خمسة كيلومترات على الاقدام حاملة حقيبتي».
«انها فعلا خطوة شاقة يا سيدتي».
لم تأبه للمعاني المبيتة في ملاحظته الأخيرة بل جلست حزينة

وقالت:

«اظن ان لا خيار لي».

التفت نحوها ظافراً وكأنه خطط بدقة حواره معها وابتسم قائلا:

«بامكانك ان تطلبي من زوجك ان يقودك الى المحطة».

«لكنه ليس زوجي- ولا يحق لك ان تدعي انه زوجي».

التفت نحوها، وراح يحدق بها بعينيه النافرتين وسط وجهه المحتقن وقال:

«بدا لي انه رجل شريف وهو يدّعي انك زوجته واميل الى تصديقه».

«اما انا فلست زوجته. واني راحلة الآن ان تناولت افطاري او لم اتناوله وارفض البقاء ليلة اخرى في المكان ذاته معه- ارجوك ان تحضر لي فاتورتي».

هزّ كتفيه العريضتين ثم دخل الى الغرف الداخلية وعاد بعد دقائق وبيده الفاتورة فسددت قيمتها بسرعة وتسلمت وصلا منه من غير ان يتكلم اي منهما.

«سأحضر لك حقيبتك».

وصعد السلم قبل ان يتيح لها الاجابة.

«شكراً لك».

نظرت بقلق الى حقيبتها الثقيلة وادركت ان حمل حقيبتها والسير بها على الطرق المقفرة والمتعرجة عمل شاق جداً اذا ما قورن برفاهية سيارة بيل ورفقته.

«هل لديك فكرة عن اسلوب ذهابك الى المحطة؟».

تجاهلت سؤاله رغم انها لاحظت الابتسامة الظافرة التي رافقته وخرجت من الفندق.

كانت الطريق سيئة التعبيد لكنها استطاعت ان تسير على حافتها

المكسوة بالعشب.

اشتدت حرارة الشمس بسرعة فاقت توقعاتها وشعرت ان وزن الحقيبة يزداد مع كل خطوة تخطوها. كانت قد توقفت في المقهى وخابرت العم نيكولاس الذي لم يشجعها ابداً فاكتفت باخباره انها غادرت الفندق واتجهت نحو مكان آخر تجهله.

وضعت حقيبتها على الارض ووقفت تمسد ظهرها من التعب وخلعت حذاءها لاراحة قدميها. خُيل لها للحظة انها تسمع صوت محرّك سيارة فالتفتت لكنها لم تر شيئاً.

وقفت عند حافة الطريق وسط الحقول الشاسعة وراحت الشمس تنعكس على شعرها الذهبي الاحمر الذي شعّ بالف لون وانهمرت فجأة دموع الارهاق والقهر على خديها وتأوهت:

«آه- لا- هذا بارني».

تعرفت بسهولة الى سيارة بارني الحمراء تسرع نحوها فاغمضت عينيها وكأنها تحاول طرد حلم مزعج ولما فتحتهما كانت السيارة قد اقتربت منها اكثر فجلست على حقيبتها مستسلمة لقدرها.

توقفت السيارة بعد قليل وادركت حين رأت ابتسامته الساخرة انه كان يتوقع ان يجدها في هذا الوضع المرهق فتح باب السيارة وترجل منها ثم سار نحوها ووقف امامها يتأملها لبعض الوقت واضعاً يديه على خاصرتيه ثم سألها:

«هل اكتفيت؟».

انفجرت سامنتا في البكاء. اسرع نحوها وضمها بين ذراعيه فدفنت وجهها المغبر ودموعها المنهمرة في قميصه الابيض النظيف. وسمعته يهمس في اذنها وبصوت متسامح وان لم يخل من بعض التململ:

«لماذا تتصرفين بهذا العناء؟ انت تعلمين انه لم يكن ضرورياً ان

تفعلي هذا».
«اردت الابتعاد عنك».
رفعت وجهها ثم فركت عينيها وتمنت لو كان لديها منديل تمسح به وجهها.
«تفضلي».
قدم لها منديلا ابيض فقبلته وتمتمت عبارة شكر، فيما راحت تمسح وجهها من دون ان تدرك انها لا تزال واقفة بين ذراعيه.
«هل تشعرين بتحسن؟».
حين رأته يبتسم لها انتبهت الى انه ما يزال يضمها فافلتت منه وقالت:
«نعم، شكراً لك».
«وهل انت مستعدة للعودة الى رشدك والركوب معي في السيارة».
«كلا».
وضع يديه على خاصرتيه وراح ينظر اليها من جديد وكأنها طفل عنيد يرفض التعلم ثم قال:
«كفاك عناداً- لا يمكنك متابعة السير بهذه الحقيبة اللعينة وانت تجهلين وجهة سفرك في اي حال».
«اقرر ذلك متى بلغت المحطة».
«اذا بلغت المحطة؟ لن تبلغيها ابداً على هذا المنوال».
«سأتدبر امري».
القت نظرة على الطريق المتعرّج امامها وغاص قلبها، وادركت انها لربما فشلت في الوصول الى المحطة بمفردها ومن الأفضل قبول عرضه في الوقت الحاضر وقال ملحاً:
«لن تنجحي- وانت تعرفين ذلك!».

نظرت اليه ورأت انه غير مستعد لقبول اية معارضة منها وشرعت تقول:
«باستطاعتي. . . .».
لكنه انحنى فجأة وحملها بين ذراعيه ونجح في الوقت ذاته في خلع حذائها ورماها على مقعد السيارة قائلا:
«لن اقف النهار بكامله اتجادل معك بل ستسمعين كلمتي ولو لمرّة واحدة».
ثم ذهب وأحضر حقيبتها وشعرت بارتياح عظيم لجلوسها اخيراً على مقعد مريح وامتنعت عن الاحتجاج في الوقت الحاضر.
وضع الحقيبة في مؤخرة السيارة ثم جلس وراء المقود وادار المحرك ثم التفت نحوها وقال:
«كل شيء على ما يرام؟».
أومأت ايجاباً.
قطعا مسافة قصيرة بصمت الى ان بانت لهما مباني قرية صغيرة وراحت سامنتا تبحث عن محطة القطارات. وتجاوزا فجأة مبنى حجرياً صغيراً فالتفتت اليه وصاحت:
«بارني».
لم يكلف نفسه عناء النظر اليها بل ابتسم وقال:
«انها لقرية جميلة اليس كذلك؟».
«مررنا لتونا امام المحطة يا بارني».
«اعرف ذلك- لكن لا حاجة للمحطة بعد الآن فانا معك».
«لا اريدك معي».
نظر اليها وقطّب حاجبيه معاتباً ثم قال:
«لا تقولي هذا يا عزيزتي. فاني اوفّر عليك ثمن العديد من تذاكر السفر».

«لا اريد العودة الى المنزل يا بارني».
«سيتألم العم نيكولاس لسماعه ما قلت».
«ادركت الآن ان العم نيكولاس شرير مثلك فهو يحالفك وهذا ظلم».
«طبعاً هو يحالفني رغم انك تتصورين الأمر وكأننا عصابة».
«يريدني ان اتزوجك للغرض ذاته الذي تريده انت والعم روبرت. فأنتم تؤلفون عصابة ضدي».
«آه. تتكلمين وكأنك طفلة يتيمة مرمية في الشارع، كفاك هذا فانت تعلمين ان ابي ونيكولاس يحبانك بقدر ما احبك انا».
«هنا تكمن المشكلة ويا للأسف. يجدر بك انت على الأقل ان تشعر نحوي بطريقة مختلفة عنهما».
«وكيف لي ذلك ما دمت تصديني كل الوقت».
نظرت اليه لبعض الوقت حائرة وتساءلت اذا كانت تسيء الحكم عليه لكنها هزت رأسها بعزم وقالت:
«انا متأكدة من انك مهتم بي لأنه لربما تخليت عن الزواج منك وانت تكره هذه الفكرة وقد تفعل اي شيء لأتخلى عن قراري. وقد ترغمني حتى على الذهاب معك الى الفراش...».
رأت يديه تتكمشان بقوة على المقود فتبيّض المفاصل وايقنت انها تمادت في استفزازه فقالت:
«ينبغي عليّ ان...».
كان يحدق بصمت في الطريق امامه وقد انكمشت اسارير وجهه بتوتر وادركت انه يجاهد للتغلب على فورة اعصابه وبدأ بعد قليل بالعودة تدريجياً الى الهدوء ثم هز رأسه وكأنه يحاول التخلص من فكرة ما.
«انت صعبة الاقناع. لكني سأنجح في اقناعك حتى ولو قضيت

العمر كله...».
صمتت لوهلة ثم القت نظرة خاطفة حولها وشعرت بفكرة جديدة بدأت تتكوّن في ذهنها وقالت اخيراً:
«اني بحاجة الى اجازة، الى تغيير الاجواء».
«انت في اجازة الآن».
«نعم».
ثم اضافت بعد ان القت نظرة متسائلة عليه:
«تريد اقناعي بصدق شعورك نحوي فهل انت مستعد لمرافقتي حول البلاد؟ الى كل الاماكن التي اقرر زيارتها؟».
سكت لوهلة ثم قال:
«افهم منك انك عازمة على الاستمرار في حياة التشرّد هذه».
ووافقت قائلة:
«اجل. فأنا سعيدة جداً بهذه الرحلة باستثناء حالة او حالتين».
«طبعاً سعيدة للازعاج الذي تسببينه لي وللطريقة التي جررت بها صديقك الفارس بيل من انفه».
«لم اجرّه من انفه».
«وكيف تمكنت من التخلص منه؟».
ترددت عن اخباره بحقيقة ما حصل لادراكها انه سوف يسرّ بها لكنها اعترفت قائلة:
«صدّق هذه القصة السخيفة التي اخبرتها للسيد ماك في. صدق انني زوجتك».
انفجر ضحكاً كما توقعت وقال لها:
«وتخلى عنك وكأنك افعى سامة وقعت بين يديه، آه يا عزيزتي المسكينة لقد خيّب فارسك النبيل املك البس كذلك؟».
«وانت السبب. لو لم تنشر هذا الخبر الكاذب والشنيع لكانت

الامور سارت على احسن وجه».

«الامور تسير على احسن وجه بالنسبة اليّ. نجحت في تحقيق اهدافي وفي حملك على مرافقتي حتى ولو اضطررت ان اعدك بالتجوال في اقطار البلاد».

ونظرت اليه سامنتا مبتسمة ابتسامة كان ارتاب منها لو رآها ثم قالت:

«من الأفضل لك ان تتريث قبل التصريح عن رغبتك في مرافقتي حول البلاد فاني اشعر برغبة في بسط جناحيّ والتحليق بمفردي وقد لا تحسب ذلك».

رمقها لبرهة ثم ابتسم وقال:

«هذا امر مستبعد- مستبعد جداً...».

٥- كوخ الرسام

قررت سامنتا انتهاز فرصة وجود بارني في مقهى الفندق للخروج بمفردها واكتشاف الاماكن المحيطة بالفندق. أحبت قرية «بريميرين» منذ لحظة وصولها اليها، ورضخ بارني لقرارها بالبقاء فيها ولو لليلة واحدة رغم انه كان يفضل الابتعاد عن قرية بارشيل لمسافة اكبر. دخلت خلسة الى المقهى ورأت بارني محاطاً بمجموعة من الرجال يتحادثون بحماس فخرجت من دون ان يلاحظها وتوجهت بعيداً عن القرية.

راحت تسير على درب من الحجارة المغطاة بالاعشاب يصل حدائق الفندق ببحيرة صغيرة، وما لبثت سامنتا ان وجدت نفسها على حافة الماء فشرعت تتأمل البحيرة الممتدة على طول الوادي الاخضر الخلّاب.

وتراءى لها بيت صغير من الحجر الرمادي وسط غابة من الاشجار وكأنه حلم لا واقع. توجهت سامنتا نحوه لا شعورياً برغم بعد المسافة- اختفى البيت عند منعطف من الطريق ولم تر نفسها الا وقد دخلت الحرج الصغير المحيط به والتفتت تتعجب للمسافة الشاسعة التي قطعتها واذا بها تفاجأ بصوت يرحب بها:

«مرحباً بك- هل تهت؟».

استدارت بسرعة وابتسمت لا شعورياً لمخاطبها:

«كلا. كنت اقيّم المسافة التي قطعتها».

«من الفندق؟».

ثم اضاف بعد ان اومأت ايجاباً:

«انها فعلاً لمسافة بعيدة».

كان مطابقاً لصورة الفنان التقليدية. شعر اشقر طويل، يتدلى على الكتفين ولحية شعثاء وبقع دهان تلطخ يديه وثيابه. ولم تكن سامنتا قد رأت عينين بزرقة عينيه اللتين كانتا تتفحصانها بجرأة وتقدير صريح. وتجاوباً مع ما في اعماق ذاتها سارعت الى كبحه وسألته:

«هل تسكن في البيت؟».

«نعم».

«انت اميركي؟».

تعجبت لجرأتها في الحديث وهو شيء لم تعهده مع الغرباء.

«تقريباً انا كندي بالفعل. وانت ايضاً لست من هنا فاني اعرف فتيات القرية جميعهن».

ادركت سامنتا قصده من ملاحظته الأخيرة لكنها لم تزعجها ربما لكونه رجلاً جذاباً برغم مظهره وتكهنت انه لا يلاقي اية صعوبة في الحصول على المرأة التي يريدها.

كانت متأكدة انه لحق بافكارها اذ رأته يبتسم فهزت برأسها وراحت نبضات قلبها تتسارع حين صافحت يده الملوثة بالدهان التي مدها نحوها قائلاً:

«بيتر روبرتس».

«سامنتا داوليش».

عصر اناملها بين يديه وابقاها مدة اطول مما تطلبه المصافحة العادية ثم قال لها:

«والآن بعد ان تعارفنا ارجو ان تعاودي زيارتك».

«لا ادري مدة بقائنا هنا».

ادركت انها مرتبكة جداً بحضوره وكأنها تلميذة مدرسة امام رجل ناضج يربكها الى اقصى حد.

«آه فهمت، انت برفقة شخص».

«هناك باري ايضاً».

نظرت اليه وادركت انه يجهل ولا يبالي ابداً من قد يكون باري فبيتر روبرتس مهتم بها الآن من دون سواها.

«آه.. لست من اسكتلندا- اخبريني المزيد عن نفسك».

لم تستطع كبح الابتسامة التي شقت ثغرها لنبرة سؤاله السلطوية ولم تتردد في الاجابة:

«لا اظنك تعرف القرية التي اسكنها. فهي تدعى ليتل ديستول في مقاطعة ساري».

«اعرف ساري لكني لم ازر ليتل ديستول، اظن انه ينبغي عليّ ان اقصدها يوماً ما لأن الفرص سانحة حتماً فيها».

وشرع يتأملها اثناء التكلم ولم يخف معنى كلامه المبيّت عن سامنتا. لكنها قررت ان تتعمد عدم الفهم وقالت:

«انها قرية جميلة. لكنها هادئة جداً ولا مجال للتسلية فيها. ولا يستطيع المرء الاستغناء عن السيارة هناك».

«املك سيارة وأجد دائماً اساليب للتسلية أينما وجدت. هل عشت فيها مدة طويلة؟».

«منذ ان كنت في الثالثة من عمري».

«انت فتاة قروية اذن».

انتبهت الى تهكم ملاحظته فانزعجت منه ورمته بنظرة معاتبة وقالت:

«ولندن على مسافة بضعة كيلومترات فقط من القرية، لست فتاة قروية يا سيد روبرتس».

«اذن لست فتاة قروية، هل تحبين اسكتلندا؟».

نظرت سامنتا حولها الى الوادي والتلال المحيطة به والى صفحة مياه البحيرة المتلألئة ثم قالت:

«انها رائعة الجمال».

ثم رمقته وقالت:

«انت فنان اليس كذلك؟».

«احاول ان اكون، من لا يستطيع الرسم هنا فهو عاجز عن اي ابداع. انها لمنطقة رائعة».

ثم اضاف بعد ان حدّق فيها مطوّلا وابتسم:

«ارجو ان تمكثي فيها مدة كافية لكي تتوطد معرفتي بك».

اخفضت سامنتا عينيها بسرعة وقالت:

«آه. اظن اننا سنبقى هنا ليوم او يومين على الاقل. احب هذا المكان».

«حسناً، لا اريدك ان ترحلي قبل ان يحصل شيء ما بيننا يا سامنتا داوليش».

امسك يدها اليسرى وشعرت للحظة بانامله تفحص اصبعها الوسطى ثم رفع يدها الى شفتيه ولثمها ضاحكاً:

«لا ارى اثراً لروابط تأسرك. وان كانت موجودة فهي ليست ظاهرة على الاقل».

بدأت سامنتا تشعر بموجة من الذعر الغريب والمثير في آن واحد وشبكت يديها بقوة بعد ان افلتها وادركت ان الامور تسير بسرعة تفوق قدرتها على الاستيعاب برغم تمتعها بها فقالت فجأة:

«من الأفضل ان اعود ادراجي، قبل ان يفتقدني بارني».

لم يحاول ثنيها عن عزيمتها أو الالحاح عليها كي تبقى مدة اطول بل وقف ينظر اليها بعينين برّاقتين الى ان استدارت وشرعت في السير. وقبل ان تتوارى عن نظره عند منعطف التفتت من جديد ورأته واقفاً بقامته النحيلة والطويلة وقميصه المفتوح وشعره الاشقر يتتبعها بعينيه، فلوحت له بيدها لا شعورياً لكنه لم يكلف نفسه عناء الرد على التحية.

كانت مرهقة حين بلغت الفندق وقد احمرّ خداها لكنها قررت الا تبوح لبارني بلقائها مع بيتر خاصة انه لم يكن قد لاحظ خروجها. فسوف يؤنبها حتماً لو اخبرته عن مقابلتها لغريب.

كان النهار رائعاً وتمددت سامنتا بكسل واغمضت عينيها تقيهما نور الشمس واسترسلت في التفكير باليومين المنصرمين. شعرت بالارتياح للهدوء الذي ساد بينها وبين بارني في الفترة الاخيرة حتى انها فكرت ان باستطاعتها قضاء العمر بكامله في هذه القرية الساحرة لولا وجود المشاكل التي عليها مواجهتها كمشاريع العم نيكولاس والعم روبرت المتعلقة بزواجها من بارني وموعد العرس وثوب الزفاف. . .

كان بارني متمدداً الى جانبها فالتفت نحوها وابتسم من وراء نظارتيه الداكنتين وقال:

«لماذا لا تضعين نظارات شمس».

«لست بحاجة اليها ولن استطيع رؤية كل تلك الألوان الرائعة اذا وضعت نظارات داكنة».

«لن تستطيعي رؤية اي شيء اذا ما اتلفت عينيك».

«آه- كفاك ابداء النصائح يا بارني. تتصرف وكأنك العم نيكولاس».

«ربما لاني اقوم بدوره الآن والله يعلم انك بحاجة دائماً الى

وصي».

«تتصرّف معي وكأنك مسؤول عني منذ الصغر. وتسمح لنفسك هذا لكونك تكبرني بثماني سنوات».

«يا للباقتك. ما ابعدك عن لباقة السيدات».

«انك تشكو من عقدة تفوق».

«وهل موجودة هذه العقدة؟ سمعت بعقدة النقص».

«لن تكوّن لديك عقدة نقص ابداً».

«لو كان لديّ عقدة نقص لما تحملتني يوماً واحداً».

واستدارت مجدداً لشدة اضطرابها وكأنها بدأت تشعر بالخجل نحوه او بغيرة من الاحاسيس التي بدأ بارني يولدها فيها:

«كنت انعم بالشمس ولا افكر بأي شيء وها انت تعكر مزاجي باختلاقك جدلاً».

«لم اكن البادىء بل انت».

«احدنا البادىء».

راحت تتأمل صفحة المياه الهادئة وتذكرت فجأة البيت الرمادي الصغير على ضفة البحيرة وسط الاشجار.

لم تفكر ببيتر روبرتس طيلة هذين اليومين واذ به يملأ ذهنها في هذه اللحظة بالذات الى ان باتت لا تستطيع مقاومة الرغبة في زيارته، بمفردها طبعاً، فقالت:

«ارغب في السير بمحاذاة الماء».

ونهضت بسرعة ثم اضافت:

«لا اريدك ان ترافقني ابداً».

«ليس في نيتي ابداً ان ارافقك فلا اظن انك معرّضة لأي خطر اثناء سيرك على ضفاف البحيرة».

«لا ابداً. لا خطر عليّ».

لكن شيئاً ما في نبرتها انذره بالعكس فجلس ووضع ذقنه على ركبتيه وحدق بها يتفحصها لبعض الوقت وقد خلع نظارته ثم قال:

«اظن انك تخبئين شيئاً في جعبتك».

«وكيف لي ذلك وانا لا املك جعبة؟».

«كفاك مناورات. من اين لك هذا النشاط المفاجىء؟».

«اشعر احياناً بالنشاط هكذا».

«لا- اشعر انك تخبئين شيئاً- ماذا يجول في ذهنك؟».

«لا شيء... لا شيء ابداً».

لكنه لم يقتنع بل امسك معصمها بقوة وابتسم ابتسامة ساخرة وقال بصوت قاس:

«ان هربت مني مرة اخرى حطمت عنقك يا سامنتا، اقسم لك».

نظرت اليه باحتقار، ثم افلتت يدها من قبضته وراحت تمسد معصمها وقالت بثبات:

«انا ذاهبة في نزهة ولا اظن انه يلزمني نيل موافقتك على كل خطوة اقوم بها- لم تبلغ هذا الحد بعد».

«سامنتا».

بدا متألماً من كلامها وغاضباً وكان بامكانها ان تعود اليه وتوضح له انها لم تعن ما قالته لكنها تابعت سيرها متجهة نحو البيت الصغير.

عضت على شفتها لشعورها بالاثارة لفكرة زيارتها البيت الصغير ومقابلة صاحبه، احست برغبة جامحة في مواجهة تحدي عيني بيتر روبرتس مهما كانت النتائج. وكانت تشعر برغبة غامضة في الاثبات لبارني انها لم تصبح مستعدة بعد للاستقرار في دور الزوجة.

تساءلت اثناء سيرها اذا كان الواقع الوحيد في زيارتها الحالية هو اثبات شيء ما لبارني، فكان الوضع بينهما يتطور بسرعة كبيرة وشعرت انها كانت دائماً تستبعد بارني عن الاحلام الرومنطيقية التي

تنسجها كل فتاة في مخيلتها.

نادراً ما كانا يتجادلان بهذا الحماس من قبل وادركت ان شعوراً جديداً قد تولد في علاقتهما بات يدفعها الى الحياء منه عوضاً عن التوجه اليه في كل شاردة وواردة كما كانت تفعل من قبل. لقد كتمت عنه خبر لقائها ببيتر روبرتس وزيارتها له الآن وهو رجل تعرفت عليه منذ يومين ولم يخف عنها كونه يفكر بشيء واحد حيالها.

لم تكن تجرؤ على التفكير بردة فعل بارني هذا الشيء لكنها شعرت برغبة خفية في ان يكتشف امرها، وكأنها تود انتهاز الفرصة لاثبات له ان بيتر روبرتس بالنسبة اليها لا يختلف عن ... النساء اللواتي يعجبن ببارني ويستجيب لهن بسرعة.

وصلت اخيراً الى البيت الصغير وقد اتعبتها المسافة الطويلة ورأت الباب مفتوحاً كما في زيارتها الاولى لكن قلبها راح يخفق بسرعة كبيرة حين رأت رأس بيتر الأشقر وقد انحنى فوق لوحة رسم عند احدى زوايا البيوت الخارجية.

ادركت انه لم يفقد اياً من الجاذبية التي لمستها فيه في زيارتها الأولى لكنها ترددت عن توقيفه عن العمل الذي انكب عليه.

بدا لها وكأنه حيوان مفترس مشدود العضلات وقد جلس على كرسي عال لا يعير اهتمامه الا للوحته التي كان ينجزها. وكان يلون اللوحة التي تظهر مشاهد طبيعية صيفية الألوان زاهيتها فيضفي عليها الواناً فاقعة وقاسية تزيد من جمالها.

لم يتنبه الى وصولها فاستدار بسرعة وحدق بها مدهوشاً حين تكلمت وسرعان ما ابتسم مرحباً بها:

«اهلاً بك. كنت آمل ان تأتي لزيارتي من جديد».

«كنت مارة صدفة من هنا فقررت ان اعرج عليك واحييك».

تفحصتها عيناه الزرقاوان بتأن ثم ابتسم وقال:

«وانا مسرور لقدومك».

«وارجو الا تكون منهمكاً في اعمالك».

رفع كتفيه ثم اشار الى اللوحة وقال:

«لن يصيبها اي مكروه، ما رأيك فيها؟».

«انها لوحة رائعة».

عبرت بصدق عن رأيها وادرك بيتر ذلك فابتسم.

«هل انت متأكد من اني لن الهيك عن اعمالك».

ضحك بصوت ناعم ومرر اصابعه في شعره ثم قال:

«اظن انك قادرة على إلهاء اي رجل - ان حاولت او لم تحاولي».

فاقت جرأة مديحه هذا جرأة الوان اللوحة وادركت سامنتا لتوها انه رجل مقدام لا يعرف التردد وبدأت الشكوك تساورها حول صواب قرارها بالمجيء لزيارته بمفردها.

«لا اريد مقاطعة صفاء حالتك».

«رؤيتك تزيد من صفائها. تفضلي. ما رأيك ببعض القهوة؟».

ترددت حيال قبول دعوته لكنه اصر قائلاً:

«تفضلي. تفضلي ساحضر بعض القهوة».

لم يكن امامها خيار آخر سوى قبول دعوته فدخلت البيت واشار الى كرسي خال فجلست فيما قصد المطبخ وشرع في تحضير القهوة وكان بامكانه متابعة التحدث اليها ورؤيتها لقرب المطبخ من الغرفة حيث جلست فقال لها مبتسماً:

«الى اين قلت انك متوجهة؟».

«ليس لدينا اية وجهة سفر محددة بل نكتفي بالتجول لبعض الوقت».

«وهل انتما فاران من العدالة؟».

اغضبتها وقاحة سؤاله فحدقت به حانقة:

«لا. طبعاً لا».
لم يكترث لردة فعلها بل ابتسم وقال:
«انها مجرد فكرة خطرت لي. اذن فهذه رحلة العمر أليس كذلك؟».
«تقريباً».
كان من الصعب تفسير الأمور لشخص غريب وشعرت بارتجاف يديها في حضنها لكنها اضافت:
«شعرت... عفواً، شعرنا برغبة في مشاهدة بعض انحاء البلاد ليس اكثر».
«انت وزوجك... لقد لمست اثر الخاتم على اصبعك المتوسط وهو لا يزول الا بعد زمن طويل».
وتفحصت لا شعورياً اصبعها ولاحظت الاثر البسيط في مكان الخاتم الذي خلعته حين قررت مغادرة المنزل.
لم يحاول تبرير تطفله او الاعتذار فاجابته:
«بارني ليس زوجي».
«فهو عشيقك اذن».
«كلا».
كانت اكيدة من انه سيفكر في ان بارني عشيقها ولربما اعطى الف تفسير لزيارتها له لكنه لم يكن مكترثاً ان كان عندها عشيق او عشرة عشاق وسمعته يقول لها:
«انه مجرد تكهن...».
«اني اعرف بارني منذ زمن بعيد وهو بمثابة اخ لي».
«اخ لك!».
ابتسم وعاد الى الاهتمام بالقهوة ثم اتى بها واعتذر عن عدم وجود الحليب ثم جلس على كرسي فوق كومة من الثياب والاحذية وقال

وهو يشرب من فنجانه.
«اذن انت تسافرين من دون وجهة معينة برفقة اخيك هذا».
وأومأت سامنتا ايجاباً وقد أربكها عدم تصديقه لها ثم قالت:
«نوعاً ما».
«يبدو لي انك من نوع النساء اللواتي احبهن يا سامنتا... عيشي يومك ولا قلق بشأن الغد، أليس كذلك؟».
وافقت مترددة فضحك من جديد وقال:
«غريب، فنادراً ما احظى بالحكم على امرأة لكني صنفتك في عداد النساء التقليديات اللواتي لا يعاشرن الا الرجل الذي يتزوجن منه».
«قد اكون احداهن».
«وكيف لك ان تكوني احداهن وانت تتجولين في انحاء البلاد برفقة هذا الرجل الذي تدعين انه اخوك؟».
«نعم فهو كذلك، بارني. آه... انه مختلف».
«حتماً هو مختلف».
«سيد روبرتس!».
«آه لا داعي للصراخ ولا تضطربي لكلامي ارجوك ان تناديني بيتر فلا احب من يناديني بكنيتي. لم اكن افتري على اخيك هذا بل ادعو له بالتوفيق».
«اظن انك مخطىء في فهمك لعلاقتنا».
وضعت فنجان القهوة على الطاولة كي لا تفضحها رجفات يديها ورأت وميضاً في عينيه بعث فيها القلق وبدأت تتمنى لو كان بارني معها رغم انها كانت تدرك انها قامت بزيارتها هذه لتلقينه درساً.
وسمعت بيتر يسألها:
«الا تحبين قهوتي؟».

«انها قوية جداً – لكن شكراً لك على تحضيرها لي».
انحنى الى الأمام ووضع رأسه بين يديه وراح يتفحصها متسائلاً ثم قال:
«لدي انطباع انك على وشك الفرار. أليس كذلك؟».
ترددت حيال تقبل ما قال فلعلها مخطئة في شأنه لكنها شعرت بارتخاء شديد في ساقها وشعرت ان الشك الذي يساوره ظاهر بوضوح في عينيها فقالت:
«اظن انه من الأفضل ان اعود الى الفندق لعل بارني بدأ يتساءل عن مكان وجودي».
«لو كان الأمر يهمه لرافقك».
«لكن هذا خطأ فهو يهتم بي».
«وهل قلت له انك قادمة الى هنا؟».
«لا ليس فعلاً انما هو يعرف الاتجاه الذي سلكته».
«وهل سيلحق بك؟».
«لا ادري... ربما».
وضع فنجانه على الطاولة ثم انحنى مجدداً وابتسم قائلاً:
«انك فعلاً تحيرينني يا سامنتا انا عاجز عن التقرير ان كنت الفتاة الساذجة التي يدل عليها مظهرك ام انك ممثلة بارعة؟».
«لست اياً منهما».
«آه. تعالي. ودعينا من هذا، انت حتماً احداهما. كنت اميل الى اعتبارك فتاة ساذجة لكن هذا لا يتماشى مع تجولك في انحاء اسكتلندا برفقة رجل تدعين انه ليس زوجك ولا عشيقك ولا اخاك كما ان هذا الوصف لا يطابق قدومك لزيارتي. ما هو سرك يا سامنتا؟».
«لا اسرار لدي».

نهضت من كرسيها وتوجهت الى الباب ووقفت لوهلة وقد سحرتها روعة المنظر الذي رأته وانستها مشاكل الحاضر وقالت:
«كنت مهتمة بالتعرف اليك كونك فناناً، بكل بساطة».
«آه، فهمت الآن».
اقترب منها ووقف وراءها ولف خصرها بذراعه وهمس في اذنها:
«اود رسم صورتك يوماً ما، لكن الآن هناك اشياء من الأفضل ان نفعلها».
وشدد قبضته على خصرها وانحنى نحوها يحاول معانقتها وغار قلبها ذعراً بعد ان ادركت رعونة قرارها بزيارته وقالت له لاهثة:
«اتركني يا بيتر ارجوك لم آت لهذا الغرض».
لكنه لم يأبه وحاول معانقتها، فقاومته بشدة بيديها وقدميها وكادت ان تخور قواها حين فوجئت بيدين قويتين تقبضان على بيتر وتقذفان به بعيداً فيرتطم بحائط المنزل ويهوي على الأرض. جلس ينظر الى مهاجمه وعادت الابتسامة الى ثغره ثم قال:
«اظن انك بارني ولا اظن انك اخوها كذلك».
بدا بارني اقل غضباً مما توقعت سامنتا ولم يسألها حتى ان كانت على ما يرام، مما اغضبها في تلك الظروف بل سمعته يقول له بصوت هادىء ومؤدب:
«ربما لأني لست اخاها. وهل يفترض بي ان اكون اخاها؟».
رفع بيتر روبرتس كتفيه ولم يزل جالساً على الأرض وقال مبتسماً:
«فهمت منها انك بمثابة اخيها».
«وهل ادركت خطأك الآن؟».
واومأ بيتر ايجاباً وقال:
«حسناً يا صديقي. كنت اشك في ذلك من بادىء الأمر لكن فاتنتنا هذه ادعت انك لست زوجها ولا عشيقها ولم اجد اي صفة

اخرى تنطبق عليك».

«ما رأيك بخطيبها؟ ستتزوج في الثاني عشر من الشهر المقبل».

«آه، فهمت الآن».

وحدقت عيناه الزرقاوان بوجهها الغاضب وقال:

«لا تلعبين بصدق ايتها الفاتنة».

ثم ابتسم لبارني وقال:

«لكن اظن ان هذا التصرف من ضمن عادتهن اليس كذلك؟».

وشرعت سامنتا تقول:

«لم...».

لكن بارني شدد قبضته على معصمها وضمها الى جانبه من دون ان ينظر اليها حتى حين تكلم:

«لا اظن اننا سنلتقي بعد اليوم يا سيدي فاننا راحلان غداً صباحاً».

«لا اريد...».

لكن بارني رماها بنظرة حادة وقال لها:

«نحن راحلان. والى ذاك الحين انصحك بعدم الابتعاد عني حتى تتسنى لي مراقبتك».

كان هذا اسوأ ما يمكنه قوله في هذه اللحظة اذ انفجر بيتر ضحكاً وشعرت بكره شديد نحوه رغم ادراكها انه غير مكترث ابداً بمصيرها.

لم يترك بارني معصمها ثانية واحدة اثناء عودتها الى الفندق، وكأنه خشي ان تعود الى الهرب والتزم بالصمت الى ان توقفا على مقربة من الفندق في مكان معزول ولاحظت ان الارتياح باد على وجهه حين التفت نحوها يتفحصها بصمت ثم قال:

«لا تتعلمين ابداً من اخطائك اليس كذلك؟».

«اعرف تماماً ماذا افعل».

«آه لا اشك ابداً في ذلك. فكنت تحاولين على طريقتك المتهورة الخاصة ان تثبتي لي انني لست الرجل الوحيد في حياتك على غرار ما فعلت مع بيل سميث».

«كلا! لم...».

«طبعاً نعم. ما كنت تحاولين اثباته واضح تماماً لكنك تختارين اغرب الاشخاص لادوار تمثيلياتك. اخترت اولاً دمية من دمى ملاكي الاراضي القدامى، وها انت الآن تقعين على فنان فوضوي لكي اهتك على حبك للتنويع».

«توقف عن التصرف بالتعجرف هذا فانت تجهل كل شيء عن شعوري ولست بحاجة [illegible] حارس يتبعني الى كل مكان. لست بحاجة اليك».

«اهذا رأيك اذن؟ وكيف تتصورين ان الفصل بينكما كان سينتهي لولا تدخلي؟».

«كان بامكاني ان اتدبر شؤوني بذاتي».

تمنت لو كان باستطاعتها الصعود الى غرفتها لبلورة الأمور المبعثرة في ذهنها.

«كان بامكانك ان تدبري شؤونك بذاتك! هل جننت يا سامنتا؟

لم يكن عاشقك الفنان هذا بمزح الم تفهمي ذلك؟».

«لم يزعجك هذا الشيء كثيراً؟».

«لاني لا استطيع ان الومه».

«ماذا؟ هل علي الافتراض ان الذنب ذنبي؟».

«طبعاً ذنبك - حين تذهبين لزيارة رجل يسكن وحده في مكان معزول فمن الطبيعي الا يفكر الا بشيء واحد».

«لم ادرك هذا».

ونظر اليها نظرة تعجرف اغضبتها ثم قال لها:

«لا اظنك بهذه السذاجة يا سامنتا بل أردت الانتقام مني برغم انكارك ذلك. ومقابلتك لصديقنا الفنان الملتحي تنبع من القرار ذاته حسناً، ارجو ان تكوني راضية عن النتيجة».

زاد قلقها كونه اقترب من الحقيقة وتمنت لو توقف عن التحديق بها لكنها اعترضت على كلامه قائلة:

«لم يكن هنالك اية نتيجة. لم يحدث بيننا شيء سوى محاولته عناقي ولم تستطع الحؤول دونها».

«آسف ان خيبت املك لكني قلت لك انني لا ألومه فهو كان يحاول انتهاز فرصة لا تعوض

«كما فعلت انت مراراً حتماً».

«ها قد عدنا الى الموضوع ذاته. اظن انك ما زلت تشعرين بلسعة تلك العلاقات التي يفترض بي ان اكون اقمتها مع النساء؟».

«يفترض بك، لا غير؟».

وضحك فسطعت عيناه ثم ضمتها ذراعاه الى صدره الرحب وهمس:

«بت اصدق انك تغارين يا حبيبتي».

وضحك مجدداً حين هزت برأسها مستنكرة ثم قال ملحاً:

«انا متأكد من ذلك!».

«انا لا اغار – اتركني الآن يا باري – اتركني».

«لماذا اتركك. ستتزوج قريباً فلماذا تقاومينني بكل قواك كلما لامستك».

«لن اتزوج منك، اخبرتك بهذا مراراً – سأختار زوجي بنفسي متى رغبت في ذلك ولن اجبر على الزواج منك من اجل تلبية رغبة

عائلتينا لا غير».

«انا ايضاً ارغب في الزواج منك. الا تقيمين وزناً لهذا الشيء ابداً».

«كلا فانت موافق على الزواج لانه سيجمع شمل المؤسسة».

«يا لله يا عزيزتي تصورين الأشياء وكأننا في حرب داحس والغبراء».

«لا يهمني هذا. لن اتزوج منك يا باري وهذا قرار نهائي».

«سوف نرى. من هو الرجل المقبل على لائحتك؟».

«يا لك من وحش. يا لك من وحش ظالم شيطاني وكريه».

«شكراً على لطفك».

«اني اكرهك».

«يا للأسف اذ سوف تضطرين الى تحمل طيلة حياتك. بعد وقت قريب».

«ان كنت تظن اني. . .».

«اعرف. اعرف».

وقطع عليها جميع احتجاجاتها حين ضمها الى صدره وعانقها بلطف ولهفة.

٦ - آخران على الطريق

امضت سامنتا ليلة هادئة وقد ادهشها هذا الأمر كونها تجادلت مع بارني من جديد اثناء تناولها العشاء وخرجت لنزهة بمفردها بعد العشاء. فقدت السيطرة على اعصابها وداعبها بارني كعادته وكأنها طفلة مما زاد غضبها.

صعدت الى الفراش باكراً وتوقعت ان تعجز عن النوم طيلة الليلة لكنها ما لبثت ان غرقت في نوم عميق تخللته بعض الأحلام الغريبة رأت فيها بيل سميث وبيتر روبرتس يلحقان بها عبر ممرات طويلة، وكلما فتحت باباً للتخلص منهما وجدت بارني واقفاً خلفه ينتظرها. وافاقت من حالة الاستياء لحتمية تواجد بارني اينما ذهبت.

وكما اعلن بارني، غادرا الفندق في الصباح بعد تناولها الافطار لكنها فوجئت به يستشيرها حول وجهة سفرهما فقالت له اثناء توجههما نحو الطريق العام:

«يدهشني ان تكلف نفسك عناء استشارتي!».

«لماذا؟ فالرحلة رحلتك وانت تقررين وجهة سفرنا».

«باستثناء بقائنا هنا، فهذا غير مقبول طبعاً».

«طبعاً. لكن مغادرتنا هذا المكان نابعة عن قرار حكيم، فلو بقينا هنا لكنت ذهبت الى منزل صديقنا الملتحي من جديد، وقد لا اصل هذه المرة في الوقت المناسب للحؤول دون قيامه بعمل غير

لائق».

«لم يقم بعمل غير لائق».

ضحك لبرهة ثم قال:

«وكيف لا. كنت تقاومينه بكل قواك حين وصلت برغم اصرارك ان ما حصل هو مجرد عناق».

كان من الصعب عليها انكار ما قاله لكنها لم تشأ الاعتراف بحقيقة شعورها في تلك اللحظة وخاصة بذاك الارتياح العظيم الذي غمرها لوصوله في اللحظة الحرجة فقالت:

«كانت ردة فعل لا شعورية».

«هل انت متأكدة من ذلك؟ لقد لاحظت انك لم تقاوميني بهذه الضراوة حين عانقتك انا».

«طبعاً قاومتك».

«لا، لا. حاولت جهدك ان تتفادي المعانقة لكنك تجاوبت كلياً معها وكأنك استمتعت بها حين حصلت».

«انا!».

رمته بنظرة ساخطة بطرف عينيها، لكنه راح يضحك بصوت ناعم وكأنه يدرك تماماً شعورها فقررت الاحجام عن الخوض في الموضوع خاصة انها عاجزة عن تحديد حقيقة شعورها نحوه.

ادركت انها باتت تجهل كل شيء عن مطاف الرحلة المستقبلي وتمنت لو استطاعت ايجاد مخرج مشرف يخولها العودة الى المنزل بلا هزيمة. لو قبل بارني ان يتركها وشأنها لكانت توصلت الى قرار نهائي مهما كانت طبيعته لكنها باتت تدرك اكثر فاكثر مدى اعتمادها عليه وفي المواقف الحرجة خاصة وهي تجهل ان كانت تستطيع مواجهة احداث السفر من دونه وسمعته يسألها فجأة:

«أين تريدين ان نذهب؟».

«لا ادري - الى اي مكان، لا فارق عندي».

«الى البيت؟ هل قررت الاستسلام اخيراً يا سامنتا؟».

هزت برأسها بثبات وقالت:

«كلا تابع القيادة وسوف نجد مكاناً في طريقنا».

«عظيم!».

خيّل لسامنتا انها لمست خيبة امل طفيفة في نبرته.

سارت السيارة على طرقات ضيقة سيئة التعبيد مليئة بالحفر لكن الطبيعة الخلابة والشمس الدافئة غمرتا سامنتا ارتياحاً فاسترخت في مقعدها واغمضت عينيها واسترسلت في افكارها.

«بماذا تفكرين؟».

هزت برأسها وقالت:

«لن اخبرك. لا اود اشراك احد في افكاري».

«حسناً يا سيدة الأسرار، لكنك بديت لي وكأنك تخططين لشيء ما».

«انت مخطىء. اهتم انت بالقيادة ودعني استمتع بالرحلة».

لفت انتباهها شخص يسير على الطريق امامها فرفعت رأسها وقالت:

«هناك شخص ينتظر سيارة تقله».

«هناك بالفعل شخصان. لكني ظننتك نائمة».

«لا ابداً. كنت استمتع بالمناظر الطبيعية».

«كسيدة متفرغة».

«ولم لا؟».

باتت تستطيع التمييز بين الشكلين فادركت ان هناك شخصاً اطول من الثاني وكان الاثنان يجران اقدامهما تعباً فالتفت بارني نحو سامنتا وسألها:

«ما رأيك؟ هل نأخذ ركاباً؟».

لم يكن من عاداته اقتراح شيء كهذا لكنها ما لبثت ان لاحظت شعراً اشقر طويلاً يتدلى على كتفي الشخص الصغير القامة فرفعت كتفيها اذ شعرت انها لن تنزعج من رفقة غرباء في هذه اللحظة خاصة ان الارهاق باد بوضوح عليها فقالت لبارني بتهكم:

«ولم لا. اظن انها بحاجة لمن يقلها. واتوقع ان تكون المرأة شاكرة لك في اي حال».

ضحك بارني ثم اوقف السيارة بالقرب منها فالتفتا ونظرا اليها وابتسمت عينا الفتاة الزرقاوان حين وقع نظرها على بارني الذي سألها:

«هل تقصدان المكان الذي نقصده».

واومأت الفتاة ايجاباً بتلهف وقالت:

«نذهب الى حيث تذهبان».

وامسكت لتوها مقبض الباب.

ابتسم لها بارني حين جلست في المقعد الخلفي وتذكرت سامنتا الفتاة الشقراء في فندق برايتون وادركت ان هذا النوع من النساء الشقراوات لا يستطعن مقاومة اغراء بارني.

صعد رفيقها الى السيارة من دون حماس ولاحظت سامنتا انه وسيم الملامح رغم تململه الواضح في هذه اللحظة وفسرت سامنتا ذلك على اساس انهما تشاجرا حتماً. والتزم كل منهما بالصمت لبعض الوقت الى ان سألها بارني:

«الى اين انتما ذاهبان؟».

تكلم الرجل قائلاً:

«كنا نتمشى من دون هدف محدد».

«لكن المشي متعب في هذا الجو الحار».

واجابت الفتاة من دون تردد وبنبرة متكلفة:

«طبعاً. رفضت القدوم بادىء الأمر واتمنى لو لم ادعه يقنعني بالعكس».

ابتسم بارني ابتسامة تفهم ونظر الى الفتاة الشقراء في المرآة ثم قال:

«لا بد انك مرهقة الآن».

رماه الرجل بنظرة حادة وقال:

«كان بامكاننا ان نتدبر شؤوننا بنفسنا».

«انت تعبر عن نفسك فقط».

صاحت الفتاة ثم استعادت بعضاً من هدوئها وابتسمت معتذرة لبارني وقالت:

«انا آسفة. كنا نتجادل كما ترون لكن لا يحق لنا ان نزعجكما بخلافاتنا».

«لا عليك».

وابتسم لها بارني في المرآة وفاض وجهها تحسراً وقالت:

«سئمت السير على الأقدام. اني اكره ان اكون مرهقة، مغبرة وفي وضع غير مريح».

«ادرك شعورك تماماً».

كانت المرة الأولى التي تتكلم فيها سامنتا والتفتت نحوها الفتاة وكأنها تلاحظها للمرة الأولى ايضاً. لكن الرجل قال:

«من الأفضل ان نعرفكما بانفسنا. اسمي ادوارد وارن وهذه خطيبتي باتسي غوردن».

«بارني فوستر وهذه خطيبتي سامنتا داوليش».

اوشكت سامنتا ان تحتج على كلامه لكنها ادركت انه لن يجديها نفعاً تفسير الأمور اذ سوف يظن الزوج انها في خلاف مثلها،

فصافحتها وانتبهت الى ان باتسي غوردن تفحصتها بتأن ولاحظت حتماً غياب خاتم الخطبة عن اصبعها. وقالت تخاطب بارني مبتسمة:

«اشكرك كثيراً على توقفك ودعوتنا الى الركوب معكما فكنت موشكة على الهلاك».

وضحك بارني وقد بدأ يستمتع باللعبة ثم نظر اليها في المرآة

«ادوارد رجل نشيط جدا وهو لا يدرك اني لا اصلح للسير مسافات بعيدة على الأقدام ولقد اخبرته مراراً انه بحاجة الى امرأة قروية نشيطة لا الى حسناء من المدينة مثلي».

ابتسم بارني متودداً ثم قال:

«لا اتصورك ابداً من النوع الذي يهوى السير الطويل المدى».

«لست من هذا النوع ابداً واضافة الى ذلك فانا اكره السندويشات والقهوة المخزنة في الأوعية المبردة».

ضحك بارني وكان واضحاً تعاطفه مع الفتاة وتساءلت سامنتا عن مدى استعداده للاستمرار في موقفه المتعاطف هذا وتجاهله استياء خطيبها الواضح. لكنها سمعته يقول:

«هناك فندق صغير نصله بعد قليل فما رأيكم ان نتناول الغداء اذا امكن ذلك؟».

وصاحت باتسي قبل ان يتسنى لأي منهم التعبير عن رأيه:

«عظيم. فالجوع ارهقني».

ذكرها رفيقها بلهجة مستاءة:

«لدينا وجبة طعام معلبة وهي تكفينا».

تنهدت باتسي وكأنها مشرفة على الهلاك ثم قالت:

«قلت لك اني سئمت السندويشات. افضل وقعة ساخنة واني مصممة على ذلك. باستطاعتك انت ان تذهب وتأكل السندويشات في العراء ان اردت اما انا فسأتناول طعاماً شهياً وساخناً واستمتع به».

بدأت سامنتا تشعر بالأسى حيال ادوارد وارن لتمادي بارني والفتاة الشقراء في تجاهلهما شعوره وهو اضافة الى ذلك رجل وسيم وجذاب رغم تغطية حاجبيه المستمرة.

التفتت نحوه وابتسمت قائلة:

«يسرني جداً ان تتناول الغداء معنا يا سيد وارن».

نظر الى الفتاة قبل ان يتجرأ ويبتسم لها ويقول:

«يسرني ايضاً، ان كنت فعلاً ترغبين ذلك».

رمته باتسي غوردن بنظرة متعجبة ومرتابة لكن تلهفها لتناول طعام شهي حال دون ابدائها اي اعتراض فقالت:

«لي فستان في حقيبتي – سوف ارتديه واعود من جديد الى بعض التمدن».

قدم لهم صاحب الفندق وزوجته طعاماً شهياً ولم يترددوا في طلب المزيد منه واستغلت باتسي غوردن الفرصة لالتهام كمية كبيرة من الطعام وكأنها تخشى الا تسنح لها فرصة مماثلة الا بعد وقت طويل. وكانت قد ارتدت ثوباً اصفر يبرز جسمها ووضعت اقراطاً في اذنيها وانفردت بالحديث مع بارني طيلة الغداء تاركة سامنتا برفقة ادوارد الذي انزعج لهذا بادىء الأمر لكنه ما لبث ان ظن ان الحظ قد يحالفه مع سامنتا فاعارها كل انتباهه وسألها:

«هل تحبين المشي؟».

وأومأت سامنتا ايجاباً فانحنى باتجاهها ووضع يده بتردد على يدها وقال:

«كان افضل لي لو اتيت انت معي في هذه الرحلة عوضاً عن باتسي. فهي تكره المشي».

«لكن المناظر الطبيعية رائعة الجمال وخاصة في هذه المناطق».

«رائعة فعلاً. اقول دائماً لباتسي انها لو استطاعت التركيز على جمال المناظر لنسيت تعبها».

«لكن اظن ان السفر في السيارة يبقى اقل تعباً. اني اتعاطف الى حد ما مع الآنسة غوردن خاصة انها غير معتادة على المشي».

والقى نظرة خاطفة على باتسي كي يتأكد انها لن تسمعه لكنها كانت غارقة في حديثها مع بارني ثم عاد والتفت نحو سامنتا وقال:

«اعتقد انني ظلمت باتسي بعض الشيء فهي لا تحب الريف كثيراً فيما اعشقه انا».

«هذا يعقد الأمور اليس كذلك؟».

«آه، فقط اثناء العطل والأعياد وفيما عدا ذلك فنحن متفقان».

رمق باتسي التي كانت تتحدث مع بارني وتتودد اليه وقطب حاجبيه مستاء ثم قال:

«يبدو انها استلطفت رفيقك. ارجو الا يتكون لديك انطباع خاطىء عنها يا آنسة داوليش».

«كلا – حتماً لا فانا اعرف بارني».

«آه. فهمت فهو يحب رفقة النساء. وقد اوحى لي مظهره بهذا الشيء».

«بارني يتجاوب دوماً مع المرأة التي تشجعه فهو يحب رفقة النساء ولا يتوانى عن اعلامهن بذلك».

«وانت لا تمانعين في هذا».

اخفضت عينيها لانها ادركت انها مقدمة على كذبة اذ قالت:

«آه، لقد تعودت على تصرفاته واني اعرف تماماً ان هذه الأمور لا تعني شيئاً فلا امانع؟».

«انت فتاة عظيمة».

مد ادوارد يده وامسك بيدها ثم قال:

«من المؤسف الا يدرك حسن حظه».

سحبت سامنتا يدها بلطف وقالت:

«آه - بارني يدرك تماماً من انا».

وكانت تعرف تماماً انها تقول الحقيقة لكنها اضطربت لكون بارني نجح في اثارة غيرتها وقد صدمت لشعورها بالكره نحو باتسي غوردن لاستحواذها في هذه اللحظة على اهتمام بارني المطلق. كان شعور الغيرة هذا جديداً بالنسبة لها وقررت التخلص منه باسرع وقت وسألت ادوارد:

«الى اين ستذهبان لاحقاً».

رفع ادوارد كتفيه ثم رمق باتسي وقال:

«لست ادري. باتسي تفضل ان نعود الى البيت اما انا فأود البقاء لمدة اطول».

«هل مضى وقت طويل على سيركما».

«ليس فعلاً. نحن نسير منذ اربعة ايام».

روعتها الفكرة لكنها حاولت ان تخفي عنه حقيقة شعورها فقالت:

«انه وقت طويل لمن ليس متعوداً على المشي. لماذا لا ترتاحان لبعض الوقت ثم تتابعان رحلتكما؟».

«اظن انك على حق، بحيث يتسنى لباتسي التقاط انفاسها».

«اعتقد ان الفندق هذا يستقبل النزلاء، لقد رأيت بعض الناس ينزلون الدرج هذا وراءك وكأنهم يقيمون هنا».

التفت الى الخلف والقى نظرة على الدرج ثم قال:

«انها لفكرة رائعة واني متأكد من ان باتسي ستسر بها».

«وانا كذلك».

«وهل انت والسيد فوستر باقيان ايضاً؟».

«هذا جائز».

نظرت الى بارني وفاجأته بابتسامة اربكته رغم محاولته لتجاهلها ومتابعة الحديث مع رفيقته وسمعت ادوارد يقول لها بلهفة:

«آمل ذلك. اود ان . . . آه اني آسف لا يحق لي قول ذلك».

«قول ماذا؟».

وابتسمت تشجعه فأجاب:

«آمل ان تبقي انت ايضاً. اود ذلك كثيراً».

«اعتقد اننا سنبقى. فقرار البقاء يعود لي ولقد احببت الفندق هذا فسوف نبقى فيه ليوم او يومين، اذا وجدنا غرفاً طبعاً».

ورجع الى الوراء بغرور ثم قال:

«سأتحقق من وجود غرف وافاجئها».

«عظيم وسأحجز غرفتين لبارني ولي اذا امكن ذلك».

فوجىء بالفكرة وكأنه توقع ان تستشير بارني فيها شعرت سامنتا بسرور ماكر لفكرة حجزها غرفة لبارني من دون علمه او مشاركته.

«هل ستحجزين غرفة له ولك؟».

«اود مفاجأة بارني ايضاً. هلم بنا».

ثم التفتت نحو بارني وباتسي وقالت:

«ارجو المعذرة منكما. لن يطول غيابنا».

برغم اهتمام باتسي ببارني عادت الى ذهنها تواً حقوق الملكية على

«انها فكرة الآنسة داوليش بالحقيقة».

«آه فهمت».

انقرصت شفتها السفلى تعبر عن بعض الازدراء وكأنها لم تغفل عنها الدوافع التي حدت بسامنتا الى اقتراح فكرة بقائها ثم قالت:

«آه - من الطبيعي ان تقترح شيئاً كهذا».

والقت نظرة عابقة ومتوددة نحو بارني ثم ابتسمت بغنج وقالت:

«ربما التقينا من جديد يوماً ما».

«ربما».

اجابها وكأنه يفكر في امور اخرى وايقنت سامنتا انه يتساءل في هذه اللحظة عما اذا كانت الغيرة هي التي فعلاً دفعتها الى اقتراح فكرة بقائها في الفندق وسرت مسبقاً لخيبة الأمل التي سيصاب بها، فقالت له بخفة:

«آه! سنبقى نحن ايضاً!».

قطب بارني حاجبيه بغضب وسألها:

«آه وهل صحيح هذا؟».

«نعم - لكن اخشى ان اقول لك انه لم نجد غرفاً لنا جميعاً في الفندق فاضطررت ان اقبل بغرفة صغيرة لك تقع في الناحية المقابلة للباحة».

«هل فعلت حقاً هذا؟ وما هي هذه الغرفة، ترى؟».

«لست ادري لكن السيدة قالت انها مريحة جداً وفيها سرير لكن بلا كهرباء».

«فهمت - لقد دبرت لي مكاناً في الاصطبل مع الاحصنة».

ظن ادوارد وباتسي انهما مقدمان على خلاف ففضلا الانسحاب

ادوارد وقطبت حاجبيها في وجهه حين نهض من كرسيه برفقة سامنتا فالقت عليه نظرة حادة وقالت:

«الى اين تذهب؟».

«لن اتغيب اكثر من بضع دقائق لا تقلقي».

«لكن . . .».

كانت على وشك الاحتجاج لو لم يمسك بارني يدها بين يديه ويبتسم لها باقناع قائلاً:

«ما رأيك ان تجلسي وتسامريني، اذ ينفع احياناً تبديل الرفقاء».

ثم رمق سامنتا لبرهة حين وافقت باتسي على كلامه وادركت سامنتا انها اقتنعت بسرعة من دون ان تعلم ان بارني يستعملها لاغراض شخصية. توجهت مع ادوارد وارن الى غرفة الاستقبال الصغيرة حيث التقت بامرأة عجوز جالسة وراء المكتب رمقتها بارتياب.

وسمعت ادوارد يهمس في اذنها حين بلغا المكتب:

«تفضلي اولاً».

لكن سامنتا هزت رأسها بحزم وقالت:

«لا ارجوك - تفضل انت واسأل عن غرفتين لكما لأنه في حال وجود غرفتين فقط بامكاننا الذهاب الى مكان آخر بسهولة اما انتما فلا».

«هل انت متأكدة».

«متأكدة - شكراً لك».

ابتسم لها شاكراً والتفت نحو السيدة العجوز التي ما لبثت ان لبت طلبه قبل ان تلتفت نحو سامنتا وتقول لها:

«اخشى الا يكون قد بقي لدينا سوى غرفة واحدة. وهي لشخصين ان كنت تقبلين بها».

«اريد غرفتين. اليس لديكم اية غرفة اخرى؟».

وقفت العجوز تفكر ثم دخلت الى غرفة داخلية وعادت بعد لحظات مبتسمة وكأنها ربحت جدالاً وقالت:

«هناك غرفة صغيرة في الجهة المقابلة للباحة. لا كهرباء فيها لكنها مريحة جداً وفيها سرير مفروش فان كان السيد يقبل بها اهلاً وسهلاً».

ابتسمت لها سامنتا شاكرة وقبلت بالغرفة لبارني من دون اي تردد ثم قالت:

«حسناً سنأخذ الغرفة لكني لا اعرف مدة بقائنا بالتحديد كوننا نسوح في انحاء البلاد هل توافقين؟».

«طبعاً. لا تقلقي لذلك».

التفتت سامنتا نحو ادوارد وقالت:

«والآن - بقي ان ازف الخبر لبارني بالطف طريقة ممكنة».

لم تتح لها الفرصة باخباره عن الغرفة الا حين نهضوا للرحيل وسأل بارني:

«هل يمكننا توصيلكما الى أي مكان؟».

وتبادل ادوارد وسامنتا نظرة خاطفة ثم تكلم ادوارد قائلاً:

«شكراً لكننا سنبقى هنا».

ونظر الى باتسي يترقب ردة فعلها فقالت بارتياب:

«ماذا تقصد؟».

«ظننت انك سئمت من المشي فحجزت لنا غرفتين ليوم او يومين».

حدقت به عيناها الزرقاوان لبعض الوقت ثم ابتسمت وضمت ذراعه الى جنبها وقالت:

«انت رجل رائع يا ادي».

بسرعة واعدين باللقاء حول مائدة العشاء وما ان غادرا حتى امسك بارني ذراع سامنتا بقوة ودفعها الى الباحة امام الفندق.

«بارني...».

«تابعي السير».

سارا لبضع دقائق حتى بلغا مكاناً منعزلاً نوعاً ما وتوقف بارني فيما حاولت سامنتا استعادة انفاسها وشعرت بالغضب يجتاحها فسحبت ذراعها وصاحت به قائلة:

«ماذا تفعل بي...؟».

«اني ابعدك عن الفندق حتى لا يسمع صراخك اذا ضربتك. اما الآن اود معرفة ماذا فعلت ولماذا؟».

«قلت لك اني حجزت لنا غرفتين في الفندق لبضعة ايام».

«حجزت لي غرفة في مكان ما في العلية ومن دون استشارتي».

«ولماذا استشيرك؟ وهل تستشيرني انت حول اي شيء بل تكتفي باصدار الأوامر وتتوقع مني ان انفذها، هذه المرة اخذت المبادرة بنفسي».

«هذا واضح – ولكن الم يلعب ادوارد الوسيم دوراً في قرارك المفاجىء هذا؟».

«تصور ما تشاء».

امسك ذراعها من جديد وارغمها على النظر اليه وقال:

«هل شعرت بميل نحوه. هل ستضمينه الى قائمتك».

«انت تتخيل اموراً لا وجود لها. ولا اظن انك مخول لانتقادي وقد احتكرت الفتاة اللعوب باتسي كل وقتك».

«كنت اتوقع ان تتطرقي عاجلاً ام آجلاً الى هذا الموضوع. لكني اعتقدت ان ما حدث يشكل سبباً اضافياً كي ترغبي في الرحيل».

«لماذا – لا تهمني تصرفاتك ولقد قلت لك هذا من قبل».

« وانا لا اصدقك».

نظرت اليه لبرهة عاجزة عن ايجاد الكلمات المناسبة للرد، ثم استدارت واتجهت عائدة نحو الفندق فيما بقي هو واقفاً في مكانه غارقاً في افكاره:

«سامنتا!».

تجاهلت نداءه وتابعت السير متخطية الفندق واتجهت نحو البحيرة. وكانت ترفض ان تلتفت نحوه وتعترف له بغيرتها.

وشعرت فجأة بانامله تلتف حول ذراعها وراح يمشي الى جانبها بصمت تام. كان الجو رائعاً والشمس دافئة ورحبت سامنتا بالنسيم العليل الذي جعد صفحة المياه. انزلقت يده من ذراعها وامسكت يدها بقوة فلم تحاول تفادي ملامسته، لكنها تابعا السير بصمت. وراحت تقذف بقدمها بعض الحصى البيضاء على شاطىء البحيرة وتتمنى لو وجدت مخرجاً من الوضع هذا. ثم عادت الى الحالة الطبيعية كي يتسنى لها التمتع بجمال المكان وهدوئه وشاعرية سيرهما جنباً الى جنب ويداً في يد، لكن للأسف بدا لها وكأنها في خلاف متواصل وقد تغير كل شيء بينها واكثر ما كان يربكها هو التحول الذي يشهده بارني في نظرها.

وسمعته يقول بصوت هادىء:

«يا لروعة هذا المكان».

«انه مكان ساحر فعلاً - اتمنى لو...».

«تتمنين ماذا؟».

«لا شيء».

«سامنتا...».

توقف وجعلها تستدير وتواجهه ثم نظر اليها بعينيه الداكنتين وقال:

«لماذا؟ لماذا تحولت الأمور بهذا الشكل بيننا».

«بهذا الشكل؟».

ابتسمت بحزن ثم نظرت الى صفحة المياه المتلألئة والى الاشجار الظليلة المتأرجحة وقالت:

«احبها كما هي. هادئة وساكنة - ليتها تدوم العمر لكامله».

«لكن يا حبيبتي لا يمكن ان تدوم - وانت تعرفين ذلك لا يمكنك العيش في عالم الاحلام طيلة الوقت. عليك ان تعودي يوماً ما مهما حاولت المقاومة. يجب ان ننفذ المخطط المرسوم. هذه هي حال الدنيا وليس بوسعنا تعديل مجرى الأشياء».

«استطيع المحاولة. لا شيء يضطرني للعودة. ليس لدي اي ارتباطات، لا وظيفة ولا...».

«ولا زوج... اما زلت مصممة على العيش في عالم احلامك؟ حاولي تفهم موقفي. اريد ان اتزوجك وانت تعرفين ذلك وكنت موافقة على الزواج مني، فما سبب التحول المفاجىء؟».

«لست... لست ادري اذا حصل تحول في ذاتي، لكني رأيت نفسي في المرآة عند الخياط وادركت فجأة اني دمية اعيش نمطاً واحداً من الحياة، اي اقوم بالنشاطات ذاتها كل يوم. كتب لي ان اتزوجك من غير ان اقف ولو مرة واحدة وافكر في حياتي وزواجي. وكأنني منجرفة لا شعورياً في تلك المشاريع واجهل حتى ان كنت راغبة في الزواج منك او من غيرك».

«آه - فهمت - اهذا ما تحاولين اثباته. ان كنت راغبة في الزواج من غيري؟».

«تقريباً».

«حسناً - لكني ارجو ان تسرعي وتنتهي من تجاربك هذه فهي تضعنا على حافة بركان موشك على الانفجار».

نظرت اليه ورأته يبتسم ابتسامة لطيفة ومتهكمة فقالت:

«ارى انك تتحمل هذا الوضع بسهولة وانت محاط بمجموعة من الفتيات الشقراوات المستعدات للارتماء بين ذراعيك اينما ذهبت».

لامس طرف انفها باصبعه ثم ابتسم وقال:

«وانت تغارين منهن جميعاً. لا تنكري ذلك يا حبيبتي فالأمر واضح».

«انكر ذلك بشدة. لكني اكره ان تستعرض نفسك. فذلك يرتد علي متى اكون معك».

«سأحاول تذكر ما قلت يا حبيبتي».

«اشعر بالأسى نحو ادوارد وارن. فهو رجل لطيف اما رفيقته باتسي فهي...».

قاطعها وهو يرفع يده محذراً ثم ابتسم:

«لا تنحرفي كثيراً في مؤاساته والا اضطررت للتدخل».

«لا تتجرأ على ذلك. فالأمر لا يعنيك ابداً يا بارني».

«بلى يعنيني اذا ترك بين يدي فتاة شقراء تبكي وتنوح او اذا فر في رحلة على الاقدام برفقتك».

«هذا مستبعد جداً».

«ومن قال لك هذا؟ لا اظن انه رجل يترفع عن عمل كهذا اذا ما سنحت له الفرصة».

«لكن لا نية لي في التواري مع اي كان - فهناك قاسم مشترك بيني وبين باتسي غوردن وهو اني لا احب الاستغناء عن مصادر رفاهيتي واستبدالها برحلات سير على الاقدام».

«لم لا تعودين الى البيت اذن؟ جميع اساليب رفاهيتك موجودة فيه بالاضافة الى تلهف العم نيكولاس لعودتك».

«كلا - لم يحن الوقت بعد لعودتي الى العش وقد لا اعود ابداً».

تنهد بارني بصمت وقبّل جبينها وكأنه في غيبوبة ثم قال:

«ارجو ان تتوصلي الى قرار بسرعة والا فلا يبقى لدينا اماكن نزورها».

٧ – اجمل من اي فستان

فوجئت سامنتا حين ادركت انها على طاولة منفصلة عن طاولة باتسي وادوارد، وتساءلت عن سبب هذا التدبير خاصة ان بارني اظهر ميلاً واضحاً نحو الفتاة الشقراء. والقت نظرة عليهما فابتسم لها ادوارد بارتياب ولاحظت ان باتسي متململة بعض الشيء، رغم انهماكها بالطعام.

وسمعت بارني يسألها:

«هل خاب املك؟».

«كلا – وانت؟».

«قلت لك مراراً اني افضل ذوات الشعر الأحمر على الشقراوات. اعتقدت انك ادركت هذا الأمر».

«يصعب تصديقك».

رمق شعرها الذهبي الأحمر المرفوع عن عنقها وابتسم باعجاب ثم قال:

«احب تصفيفة شعرك هذه – فهي تضفي عليك رونقاً جذاباً».

«شكراً».

تابع تناول طعامه بصمت لبعض الوقت ثم وضع شوكته في طبقه ومد يده ممسكاً بانامله ثم تنهد قائلاً:

«ما اصعب كسب مودتك – توقعت ابتسامة بسيطة رداً على مديحي لشعرك».

سحبت سامنتا يدها بسرعة كي لا يكتشف شدة ارتجافها وتابعت تناول طعامها. ازعجها اسلوب بارني الاستعراضي خاصة ان عيني ادوارد وارن لا تفارقانها لحظة او ربما بسبب ذلك.

رمقت بارني وقد احمر خداها وقالت:

«هذه اول مرة تعلق على تصفيفتي هذه – ما كنت كلفت نفسك هذا العناء لو لم تبتغ تحقيق غاية معينة».

«لاحظته من قبل لكني لم اعلق عليه لاعتقادي انك لا تقيمين وزناً لهذه الأمور».

«انا امرأة – اليس كذلك؟».

ابتسم ببطء ثم قال:

«بكل تأكيد».

«لكنك تعودت على معاملتي وكأني احد اصدقائك الشبان او كأني اختك الصغرى. ولن يجديك تغيير تصرفاتك الآن من اجل تحقيق اهدافك. اني اعرف جيداً حقيقة شعورك نحوي يا بارني».

«لا تعرفين ما كانت حقيقة شعوري ولا ما هي عليه الآن. اعترف لك اني لم اعرك القدر الكافي من الاهتمام من قبل لكن الأمر مختلف اليوم – اريد حقاً ان اقول لك انك رائعة الجمال وان شعرك جميل. اني اغازلك يا سامنتا واتوقع منك ان تعطيني بصيص امل بين الحين والآخر، ابتسامة او كلمة لطيفة».

«لا تكن سخيفاً يا بارني».

ادركت ان ارتباكها هو الذي دفعها الى استعمال هذه اللهجة القاسية والقت نظرة خاطفة على طاولة باتسي وادوارد.

«هل اقتنعت الآن انك لا تعرفين التصرف حين احاول ان

اغازلك».

«فات الأوان يا بارني – اني اعي تماماً اسباب مغازلتك لي الآن ولا احب من يهزأ مني».

تنهد بعمق وانكمشت اسارير وجهه ثم تناول سكيناً وقال:

«انت أعند وأحمق حمارة صغيرة رأيتها في اسكتلندا – ارجو ان تخنقك السمكة التي تأكلينها!».

... امضيا معظم النهار التالي في التنزه في الريف المجاور. واصرت سامنتا على التنزه سيراً على الاقدام مدعية انه افضل اسلوب للاستمتاع بالمناظر الطبيعية وفاجأها بارني حين لم يعترض على اقتراحها فعادا مساء الى الفندق وقد احمرت خدودهما وانفتحت شهيتها على الطعام وسمعت بارني يهمس لها:

«يمكنني التهام حصان بكامله».

ثم لوح بيده رداً على تحية باتسي غوردن بينما تجاهلتها سامنتا لكنها ابتسمت لادوارد حين دخل قاعة الطعام وجلس الى مائدتها ثم قالت:

«أنا أفضّل بعضاً من السمك اللذيذ الذي قدم لنا البارحة».

«من هذا السمك الذي تم صيده ليلة البارحة في البحيرة».

«صحيح؟ ومن قال لك انه اصطيد ليلة البارحة».

«لا احد. لكن القمر ليلة البارحة كان مؤاتياً للصيد».

كانت قد صعدت باكراً الى الفراش الليلة الماضية وتساءلت عما فعل بارني بعد ان تركته. ربما لحق بباتسي وادوارد الى مقهى الفندق وتناول برفقتها بعض الشراب.

«وماذا فعلت الليلة الماضية يا بارني؟».

«طرب وشراب امضيت وقتاً طيباً».

«اصدق ذلك لكن هذا مستبعد في مكان كهذا».

«آه – ذهبت الى المقهى بعد رحيلك. وكان يعج بالناس كان عليك ان تأتي يا حبيبتي».

«هل جلست معها؟».

ابتسم حين اشارت الى باتسي وادوارد ثم قال:

«معها – كان ادوارد مرهقاً وصعد الى الفراش باكراً كما فعلت انت».

«فهمت».

وضحك بصوت ناعم ثم قال:

«تظنين انك فهمت يا حبيبتي».

«آه – لا يصعب التكهن ان الآنسة باتسي لن تتركك تسهر لوحدك. فهي تؤمن بضرورة استغلال الفرص التي تسنح لها – انا متأكدة من ذلك».

«عزيزتي سامنتا».

وانحنى فوق الطاولة وقال لها بصوت منخفض وعينين براقتين:

«بدأت تتصرفين وكأنك قطة صغيرة ويا لسوء نيتك ان كنت تفكرين بما اظن انك تفكرين».

«اني افكر بما هو بديهي».

«أصحيح هذا؟ اظن ان لي حقاً مشروعاً في ان يساورني الشك ايضاً».

«ما... ماذا تعني؟ تعلم جيداً اني صعدت الى الفراش باكراً».

اومأ ايجاباً من دون ان تفارق البسمة ثغره وقال:

«ورأيت ادي وارن يصعد الى غرفته باكراً ايضاً هل ينبغي ان اقفز الى الاستنتاجات البديهية؟».

حدقت به سامنتا وقد احمر خداها وصاحت به:

«يا لك... يا لك من وحش شنيع ومشكك».

«ما ينطبق على زيد ينطبق على عمرو».

«لكنك تعلم جيداً اني لا افعل شيئاً كهذا».

«انا اظن انك لا تفعلين شيئاً كهذا، لكني بدأت اتساءل اخيراً ان كنت حقاً اعرفك جيداً».

«تعتقد اني...».

«لكنك تعتقدين اني...».

ابتسم ثم عاد الى الاهتمام بطلب وجبة الطعام فيما راحت الخادمة تنظر اليهما بارتياب ثم التفت نحوها وسألها:

«ماذا تريدين ان تأكلي؟».

هزت سامنتا رأسها وكأنها منهوكة القوى وقالت:

«اي شيء - اطلب لي ما تشاء».

لم يتكلما كثيراً اثناء الطعام لكنها رمقته مرة او اثنتين بطرف عينيها محاولة التأكد من كونه يعني فعلاً ما قاله عنها وعن ادوارد وارن ام لا. وكانت تتمنى الا يكون جاداً فهي تكره ان يسيء الظن بها رغم قرارها عدم الزواج منه.

«بارني».

«نعم».

«هل تعتقد فعلاً اني...».

عضت على شفتها كي لا تتفوه بالكلمات من جديد لكنها نظرت اليه في ثبات الى ان قال:

«وهل تعتقدين فعلاً اني؟».

ترددت لحظة ثم هزت رأسها:

«كلا ليس فعلاً».

«سوي الأمر اذن - هيا بنا ننسَ القضية برمتها. اتوافقين».

«اوافق».

قررا التوجه في السيارة الى بقعة تطل على مناظر خلابة وجلست سامنتا على مقعد خشبي تنتظر قدومه في السيارة واذ بها تفاجأ بباتسي غوردن وقد احتلت المقعد الخلفي وكأنها مصممة على مرافقتهما في النزهة، لم تشأ كتم استيائها للوضع فرمت الفتاة الشقراء بنظرة غاضبة قبل ان تلتفت نحو بارني وتسأله:

«هل ستأتي الآنسة غوردن حقاً».

«ان كنت موافقة - لقد ذهب ادوارد الى المكان الذي نقصده سيراً على الاقدام وبقيت باتسي بمفردها فعرضت عليها مرافقتنا».

«فهمت».

وتنهدت باتسي غوردن فيما رفرف جفناها بيأس انثوي وقالت:

«لم يكن بوسعي مواجهة تعب المشي على الأقدام لهذه المسافة الطويلة فمضى ادوارد وحده واظن انه غضب مني لكني متلهفة لزيارة المكان فهو يطل على مناظر خلابة. لقد اخبرونا عنه ليلة البارحة اليس كذلك يا بارني؟».

اكتفى بارني بالابتسام وقال:

«هلم بنا نذهب اليه ونتأكد بأنفسنا».

صعدت سامنتا الى جانبه وفكرت ان قرار توزيع المقاعد اتخذه بارني والا لكانت وجدت نفسها في المقعد الخلفي.

بعد بضع دقائق اتخذت السيارة طريقاً جانبياً يتسلق الجبل بانحدار قوي وما لبث بارني ان قال:

«لقد وصلنا».

وتنهدت باتسي ثم قالت:

نظرت اليه ورأته يبتسم ابتسامة لطيفة ومتهكمة فقالت:
«ارى انك تتحمل هذا الوضع بسهولة وانت محاط بمجموعة من الفتيات الشقراوات المستعدات للارتماء بين ذراعيك اينما ذهبت».
لامس طرف انفها باصبعه ثم ابتسم وقال:
«وانت تغارين منهن جميعاً. لا تنكري ذلك يا حبيبتي فالأمر واضح».
«انكر ذلك بشدة. لكني اكره ان تستعرض نفسك. فذلك يرتد علي متى اكون معك».
«سأحاول تذكر ما قلت يا حبيبتي».
«اشعر بالأسى نحو ادوارد وارن. فهو رجل لطيف اما رفيقته باتسي فهي...».
قاطعها وهو يرفع يده محذراً ثم ابتسم:
«لا تنحرفي كثيراً في مؤاساته والا اضطررت للتدخل».
«لا تتجرأ على ذلك. فالأمر لا يعنيك ابداً يا باري».
«بلى يعنيني اذا ترك بين يدي فتاة شقراء تبكي وتنوح او اذا فر في رحلة على الاقدام برفقتك».
«هذا مستبعد جداً».
«ومن قال لك هذا؟ لا اظن انه رجل يترفع عن عمل كهذا اذا ما سنحت له الفرصة».
«لكن لا نية لي في التواري مع اي كان - فهناك قاسم مشترك بيني وبين باتسي غوردن وهو اني لا احب الاستغناء عن مصادر رفاهيتي واستبدالها برحلات سير على الاقدام».
«لم لا تعودين الى البيت اذن؟ جميع اساليب رفاهيتك موجودة فيه بالاضافة الى تلهف العم نيكولاس لعودتك».
«كلا - لم يحن الوقت بعد لعودتي الى العش وقد لا اعود ابداً».

تنهد باري بصمت وقبّل جبينها وكأنه في غيبوبة ثم قال:
«ارجو ان تتوصلي الى قرار بسرعة والا فلا يبقى لدينا اماكن نزورها».

«ما اسهل الوصول اليه بالسيارة وما اصعبه سيراً على الاقدام. آه لو كان ادوارد يملك سيارة».

«ما دمنا نتكلم عن ادوارد اظن اني اراه يتسلق المنحدر».

واشار بارني باصبعه الى رجل يتسلق التلة بسرعة كبيرة وسألته سامنتا:

«هل تعتقد انه سوف يرانا».

واجابتها باتسي وكأنها غير متلهفة ابداً ان يلحق بهم ادوارد:

«انا متأكدة من العكس فهو يدخل في نوع من الغيبوبة اثناء السير ولا يعود ينتبه الى احد».

«سنتوقف ونلوح له».

نفذ بارني كلامه فوراً فاوقف محرك السيارة ونزل من السيارة واضطرت باتسي الى الاقتداء به برغم انها لم تكن ترغب ابداً في اللحاق بادوارد. ووقفت على شفير الهاوية وكان همها الوحيد هو معرفة ردة فعل بارني حيال وضعها المتأرجح بين اليابسة والهاوية. ولاحظها اخيراً فمد يده وسحبها الى الأمان ثم قال لها:

«من الأفضل ان تتراجعي قليلاً والا تدحرجت نزولاً الى حيث يسير ادوارد».

امسكت باتسي ذراعه بيديها الاثنتين وصاحت خائفة آه - لم ادرك خطر موضعي - شكراً على مساعدتك يا بارني».

«لا شكر على واجب».

احتفظت بيديها على ذراعيه وراحت تحدق في الوادي وترتعش قائلة:

«يا لقوة انحدار هذا الوادي - اشعر بدوار حين انظر الى اسفل».

«لا تنظري اذن الى اسفل».

«يا لقساوتك يا بارني».

وسألت سامنتا:

«هل سننتظر ادوارد؟».

وكانت قد بدأت تشعر بقرف شديد لتصرفات الفتاة الشقراء الاستعراضية.

التفت بارني نحوها وبرقت عيناه ضحكاً فاحمر خداها حين ادركت السبب. لقد ظن انها تغار من باتسي غوردن. ومد يده نحوها لكنها تفادتها وكأنها لم تنتبه لحركته فيما بقيت الفتاة الشقراء متمسكة به.

«يمكننا انتظاره. ربما شعرت باتسي برغبة في مرافقته الى الفندق فطريق العودة سهلة اذ لا صعود فيها. اليس كذلك يا باتسي؟».

«لا - لا تتخل عني يا بارني بهذه الطريقة».

«لا انوي التخلي عنك لكن لربما سر ادوارد ان مشيت معه».

نظرت الى ادوارد في اسفل الوادي واكفهر وجهها ثم قالت:

«واعتقد انه سيسرّ لذلك لكني افضل ان يأتي هو معنا على ان اسير كل هذه المسافة برفقته».

انتبه ادوارد وارن اخيراً الى وجودهم ولوح بيده. لم يفاجأ بوجود باتسي معها وتساءلت سامنتا اذا كان يتوقع ان تعود باتسي برفقته. وحين وصل الى مكانهم وقد انهمر العرق من جبينه قال له بارني:

«انك حقاً تختار الطريق الشاق - اما نحن فلقد اتينا بالسيارة».

«ارى انكما احضرتما باتسي ايضاً، كنت اتوقع ان تأتي معكما حين قررت الذهاب بمفردي».

«لا اظنك توقعت ان اجلس في انتظارك طيلة بعد الظهر».

«هل ستعودين برفقتي يا باتسي؟ العودة كلها نزول».

«آه فهمت».

كان واضحاً انه لم يتوقع هذا الجواب فالتزم بالصمت مجلداً وتفادى النظر اليها حين تكلم قائلاً:

«لم تمانعي في ذهاب باتسي برفقته؟».

التفتت سامنثا نحوه متعجبة وسألته:

«وهل مانعت انت؟».

صمت لبرهة ثم رفع كتفيه واعترف قائلاً:

«لست ادري ويخال الي احياناً انه من الخطأ ان نستمر في علاقتنا».

«وهل تتجادلان كثيراً».

«لا نتجادل بكل معنى الكلمة. لست بارعاً في فن المناقشة فتتململ مني باتسي وادعها تفعل ما تشاء».

«آه فهمت».

عادت الى نزول سفح التلة الى ان وصلت الى اسفلها تقريباً ولم تعد الطريق وعرة لكنها تحولت الى درب ضيق من الحصى فتقدم ادوارد الى الأمام وامسك بيديها الاثنتين يساعدها على العبور.

انزلقت قدمها وكادت ان تهوي الى الأرض فتمسكت بقوة بادوارد الذي سارع الى ضمها بين ذراعيه متفادياً وقوعها وتراءى لها وجهه القريب من وجهها فيما سمعته يعتذر لها قائلاً:

«اني آسف».

نظر اليها للحظة وانتبهت للمرة الأولى الى عينيه الرماديتين وقد فاضتا نعومة والى وسامته برغم ايحاء ثغره وذقنه ببعض ضعف الشخصية. وادركت انه كان ينبغي عليها الا تطيل فترة بقائها بين ذراعيه لكنها كانت مسترسلة في تساؤلاتها حول طبيعة علاقته بباتسي فصدمت حين ضيق قبضة ذراعيه حولها وعانقها.

«ادوارد يا سيد وارن!».

دفعته بعيداً عنها ولم يبد اية مقاومة وادركت انه يفكر حتماً بباتسي في هذه اللحظة.

«اني آسف، اني شديد الأسف».

بدا في منتهى التعاسة والارتباك فشعرت انها عاجزة عن تأنيبه حتى ولو ارادت ذلك وادركت ان وضعها معه ليس اسوأ من وضع باتسي مع بارني وان بارني لن يتوانى حتماً عن استغلال فرصة مماثلة ان سنحت له فقالت لادوارد:

«ليس الأمر بتلك الأهمية. لكني كنت أفضل الا تفعل ما فعلت».

«ارجو ألاّ تخبري بارني اذن».

فوجئت بكلامه. فلو توسل اليها الا تخبر باتسي لكانت تفهمته لكن بارني؟ لماذا بارني؟ وسألته:

«بارني؟».

اومأ ايجاباً ثم اخفض نظره وراح يحدق في قدميه وقال معترفاً:

«اعتقد انه لو عرف لضربني ضرباً مبرحاً».

وكادت سامنثا ان تنفجر ضحكاً لكنها تماسكت وقالت:

«لا داعي للقلق من هذه الناحية. لكني لن اخبره في اي حال».

«شكراً».

عاودها شعور الشفقة حيال ادوارد فابتسمت ومدت يدها نحوه وقالت:

«هيا بنا».

استقبلها بارني بحفاوة لدى وصولها الى الفندق وعبر عن دهشة لانتعاش سامنثا. اما باتسي فقد بدت مستاءة بعض الشيء وكأن الأمور لم تجر وفقاً لتمنياتها. سرت سامنثا لكون بارني خيب آمال

باتسي وابتسمت حين فكرت مجدداً بمحاولة ادوارد لمعانقتها وكأنه من ان يتصرف ادوارد باقدام وجرأة اكثر من بارني في هذه الظروف.

شعرت بتعب شديد من جراء السير فصعدت الى غرفتها ترتاح ساعة قبل العشاء. تمددت على السرير المريح وراحت تنعم بجو غرفتها المنعش وبمنظر التلال البعيدة والسماء الزرقاء فوق قممها.

لفتت انتباهها اصوات صادرة من الباحة تحتها وتعرفت الى صوتي بارني وباتسي وقررت انه يحق لها التنصت لمحادثتهما خاصة ان ادوارد ليس معهما فاصغت جيداً وسمعت باتسي تقول:

«طلبت من ادوارد ان يحضر سيارة تاكسي هذا الصباح وذهبنا الى مدينة بنقار واشتريت فستاناً جديداً. سوف تظن اني لا املك سوى فستان واحد ان ارتديت اليوم ايضاً فستاني الأصفر لكن من الصعب حمل ثياب كثيرة اثناء السير اما فستاني الجديد فهو رائع ويلفت الانظار. اينما كنت لم اتوقع ابداً ان اجده في مدينة كبنقار».

علت ضحكة بارني فعضت سامنتا على شفتها حين سمعتها من دون ان تعرف السبب وسمعته يقول لباتسي:

«آه - لكن اهل اسكتلندا يعيشون في القرن العشرين ايضاً».

ضحكت باتسي وقالت:

«اظن انك على حق - لكن يخيّل الي دائماً انهم مختلفون عنا بمئتي سنة على الأقل».

صمتت لبرهة ثم قالت:

«بارني، سوف تطلب ان تخصص لنا طاولة لأربعة اشخاص اليس كذلك؟ اعرف ان ادوارد لن يحرك اصبعاً حيال الأمر هذا».

اصغت سامنتا بانتباه كبير فهي معنية بالقضية هذه ويحق لها كل الحق ان تعرف رأي بارني في الموضوع وسمعته يقول:

«سأكلم صاحب الفندق - لكن لا اعرف ان كان يناسبهم هذا الشيء. لا يمكننا قلب الامور رأساً على عقب ونحن لن نبقى في الفندق سوى ايام معدودة».

شعرت سامنتا بارتياح كبير لجوابه وسمعت باتسي تلح.

«لكنك ستحاول؟».

«سأحاول».

ساد الصمت بينهما لبرهة وتبعه همس وضحك فانقبضت يدا سامنتا بقوة وراحت تحدق بالسقف وتفكر بالآنسة باتسي التي بدأت تستعد للانقضاض النهائي على بارني وتساءلت سامنتا عن خطوة عزيمتها المقبلة فالله وحده يعلم ما تحضره بعد الفستان الجديد والاصرار على الطاولة المشتركة.

اغتسلت سامنتا بتأن ثم فتحت خزانة الثياب لتختار فستاناً. وقع نظرها لا شعورياً على فستان لم تكن قد ارتدته ابداً وشاءت الصدف ان يقع تحت يدها اثناء تحضيرها حقيبتها بسرعة فضمته الى ثيابها الأخرى.

ترددت عدة دقائق قبل ان ترتديه وتنظر الى صورتها في المرآة وتقطب حاجبيها. كان حتماً يلفت الانظار بلونه الأحمر الفاقع وبقماشه الرقيع الذي يلتصق بجسمها ويبرز كل خط من خطوطه وله قبة منخفضة جداً ويرفرف بحرية حول قامتها النحيلة. وادركت ان منظرها فيه وبشعرها الذهبي الأحمر ملفت للانظار ولا يخلو من بعض الاثارة وهو يضاهي كل ما تستطيع ان تلبسه باتسي غوردن.

وضعت المساحيق على وجهها بدقة وزادت من احمر الشفاه وتمنت لو احضرت معها احمر الشفاه الفاقع كي يتماشى مع الفستان وراحت تتأمل صورتها النهائية في المرآة.

سمعت وقع خطى في الممر وظنت ان باتسي عادت الى غرفتها

لتحضير نفسها وارتداء الثوب الذي تطمح ان يكسب لها قلب بارني لكنها فوجئت بقرع على بابها وسمعت بارني يقول لها:

«هل يمكنني الدخول؟».

انتابها ذعر شديد لادراكها ان بارني سوف يراها بهذا الفستان الذي لن يعجبه حتماً عليها برغم ادراكها انه قد يسحر به لو ارتدته شقراء غيرها.

قرع الباب مجدداً ظناً منه انها نائمة ثم فتح الباب ودخل الغرفة ووقف مشدوهاً حين رآها. حدق بها لبرهة ثم ما لبثت عيناه ان ابتسمتا وتقدم نحوها بعد ان اقفل الباب وسألها بصوت هادىء:

«ماذا يفترض ان يكون هذا؟».

«هذا فستان».

واستدارت على ذاتها دورتين فرفرفت التنورة حول قامتها ثم قالت:

«ارتديه لتناول العشاء».

«فهمت. لكنك لن تتناولي العشاء بهذا الفستان يا حبيبتي فهو مناف للاخلاق».

«انه . . .».

«لا يهمني ما هو. فهو لا يناسب مكاناً كمطعم الفندق ويمكنك ان تخلعيه حالاً».

«يمكنني ذلك لكن لا انوي تبديله وسأنزل به».

«لا – ليس في هذا الفندق. فالمقهى يرتاده الصيادون ولسنا في مقهى «الليدو» في باريس – ارتدي ثوباً اقل اثارة».

رمته بنظرة متسائلة وكأنها البراءة بعينها وادركت في الوقت ذاته انها بدأت تستمتع بالموقف وسألته:

«هل اثيرك؟».

ضحك بنعومة وقال لها بصوت منخفض ارتعشت له:

«انت تعلمين جيداً انك تثيرينني لكني افكر بهذا العجوز الذي يجلس في زاوية المقهى والذي قد يصاب بنوبة قلبية ان رآك».

«سوف نعرف عن قريب لأني مصممة على ارتدائه».

«لن ترتديه وانت تعرفين ذلك».

«لن اخلعه فقط لأنك لا تحبه».

طاف نظره حول جسمها بحنان كبير ثم قال بصوت ناعم:

«آه – اني احبه انه . . .».

وعبر بحركة من يديه عن اعجابه الصادق ثم ضحك وقال:

«لكنك لن تتناولي العشاء به».

«سأتناوله به يا بارني».

هز رأسه ببطء ثم سحب المفتاح من القفل بسرعة خاطفة قبل ان يتسنى لها منعه من ذلك وراح يهز المفتاح امام عينيها ثم سألها:

«الن تبدليه؟».

«كلا».

«حسناً. ستحرمين نفسك من عشاء شهي. سأحتجزك في الغرفة الى ان تغيري رأيك».

«لن تجرؤ على ذلك».

«سأنفذ كلامي وانت تعلمين بذلك، لن ادعك تظهرين وكأنك كليوباترا فتقفز عينا ادوارد وارن من محورهما».

«لا فرق بينه وبينك ان كنت تميل الى باتسي غوردن في فستانها الجديد».

«آه – انت على علم بهذا الأمر، لكن اطمئني فبعد ان شاهدتك في هذا الفستان لن يعجبني اي فستان آخر».

«سأرتديه ولن تستطيع منعي من ذلك».

طبعاً لا لكني قادر على اجاعتك حتى تطيعي الأوامر. هذا اسلوب قديم وفعال جداً».

«نعم انه اسلوب استعمل في العصور الوسطى. سأصرخ ان احتجزتني هنا، اقسم لك اني سأصرخ».

«ان صرخت اضربك. اما الآن فاخلعي هذا الفستان والا حرمت نفسك من العشاء».

«انت وحش! وحش قاس ومعدوم الاحساس».

«معقول».

لقد عرفتك منذ ثماني عشرة سنة ولم المس طيلة هذه الفترة هذه الوحشية القطيعة المختبئة وراء تهذيبك المستعار».

«ليس مستعاراً انما صادق».

«انت ظالم ومحتال».

«كالثعلب».

«آه. . .».

لم تجد الكلمات المناسبة للتعبير عن حنقها فقالت:

«لماذا توافق دائماً على كلامي؟».

«بسبب تهذيبي المستعار. لا حيلة لي».

وقفت في وسط الغرفة وشعرت بالجوع يقرص معدتها واحتارت بين متابعة التحدي او الاستسلام فقالت:

«اني جائعة».

«اخلعي اذن هذا الفستان يا عزيزتي كي ننزل ونتناول العشاء».

«لن. . .».

رفع المفتاح وسألها:

«ماذا تفضلين؟».

«اني اكرهك - اني حقاً اكرهك».

وضع يديه على كتفيها وراح يداعبها بلطف ثم ضمها الى صدره وعانقها بنعومة وهمس لها:

«لا اصدقك!».

وشعرت سامنثا برغبة جامحة في البكاء لكنها سمعته يهمس في اذنها:

«انت اجمل بكثير في الفستان الأخضر».

٨ - الفرار الأخير

خيّم سكون الليل على الفندق وباحته وراحت سامنتا تتأمل من نافذة غرفتها التلال السوداء البعيدة وضوء القمر البدر يتلألأ على صفحة مياه البحيرة.

نادراً ما كانت تعجز عن النوم لكنها شعرت كأن صوتاً اقلقها وحال دون عودتها الى الاحلام اضافة الى مشاكلها العديدة الأخرى.

كان قد انتهى خلافها مع بارني باستسلامها كالعادة ووجدت نفسها طيلة السهرة امام فستان باتسي الأزرق الجديد الذي فاق فستانها اثارة بكثير.

كانت تشعر ايضاً برغبة قوية في العودة الى البيت والحياة الطبيعية برغم انكارها ذلك امام بارني، وقد فكرت ملياً في المسألة وخطر ببالها ان تخابر العم نيكولاس قبل ان تخبر بارني وان توضح له انها مستعدة وراغبة حتى في العودة شرط ان يُلغى الزواج والا يضغط احد عليها لتثنيها عن قرارها. وكانت تدرك انها ستخيب امله وأمل العم رويرت لكن المسألة المطروحة تتعلق بحياتها ويحق لها التصرف بها كما تشاء. لربما تزوجت يوماً لكنها ترفض الفكرة رفضاً قاطعاً حالياً، وان تزوجت فلن يكون من بارني. اعتبرت سامنتا ان خطتها معقولة جداً وقد يتقبلها العم نيكولاس ويقف الى جانبها.

حاولت العودة الى النوم بعد ان اعتبرت انها توصلت الى ايجاد حل

للمسألة لكنها لم تفلح بل رقدت على السرير الواسع تحدق في جدران الغرفة المضاءة بنور القمر ثم نهضت وتوجهت نحو النافذة حيث راحت تتأمل النجوم الساطعة في السماء.

نظرت الى غرفة بارني في الجهة المقابلة للباحة وابتسمت تلقائياً حين تذكرت وصفه لها بالاصطبل واستياءه من اختيارها له. كانت هناك احداث كثيرة عاشتها مع بارني تدعوها الى الابتسام.

وعادت بذاكرتها الى كل تلك الاوقات الطيبة التي امضتها برفقته منذ ان كانت طفلة وكانت تعتبره بطلاً صنديداً لكونه اكبر منها سناً وثقة بنفسه.

لفتت نظرها فجأة حركة في الباحة وكأنها ظل ابيض سطع في دكنة الليل وما لبثت ان ادركت ان الظل هو ظل انسان يسير.

ولم تجد صعوبة في التعرف على شعر باتسي غوردن الأشقر الطويل وقامتها الممتلئة وقد لفت جسمها بثوب رقيق وفاتح اللون اضفى عليها شكل الاشباح.

وقفت سامنتا تراقبها لبرهة فيما تهافتت التخمينات على ذهنها وتسارعت خفقات قلبها. عبرت الفتاة الشقراء الباحة بخفة وحذر وتوارت عند باب الفندق الخلفي تحت نافذة سامنتا بالضبط.

شعرت سامنتا بيديها تنقبضان بشدة على حافة النافذة وبالدم يتدفق غزيراً الى رأسها فيما وقفت جامدة وقد صعقها ما رأته. فالمكان الوحيد الذي يمكن ان تكون باتسي آتية منه هو المبنى حيث غرفة بارني فلا ابنية اخرى في الباحة سوى قبو قديم يستعمل لتخزين المؤونة ومن الصعب جداً ان تكون باتسي قد قامت بزيارته في مثل هذا الوقت.

نظرت سامنتا الى ساعة يدها وكانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ثم استدارت واتجهت نحو السرير بخطى ثقيلة وارتمت عليه

مهارة. كثيرا ما كانت تتهم بارني باقامته علاقات مع نساء اخريات لكنها لأول مرة اليوم لمست صحة اتهاماتها وقد ولدت لديها مرارة غريبة بعيدة كل البعد عن الشعور بالظفر الذي كانت تتوقعه.

خيل اليها سماع اصوات خافتة في الممر وادركت ان باتسي غوردن عادت الى غرفتها. تصورتها تدخل غرفتها من دون ان يكتشف احد امرها ولربما كانت سعيدة بما انجزته فلم تستطع سامنتا تحمل هذه الصورة، فنهضت بسرعة وتوجهت نحو باب غرفتها بعزم رغم انها كانت تجهل ما تريد عمله.

كانت تعرف شيئاً واحداً وهو انها لن تدع باتسي غوردن تفكر ان احداً لم يكتشف نزهتها الليلة هذه ففتحت باب غرفتها مصممة على مواجهتها واخبارها انها رأتها خارجة من عند بارني.

اثناء فتحها لباب غرفتها سمعت صوت باب يقفل فوقفت في الممر وقلبها يخفق بسرعة جنونية ويداها ترتجفان بقوة. كانت تعرف ان باتسي وادوارد يشغلان الغرفتين رقم اثنين وثلاثة. وراحت تقلب الرقمين في ذهنها حائرة تتساءل عن رقم غرفة باتسي الى ان رأت شعاعاً طفيفاً من النور تحت باب الغرفة رقم ثلاثة فتشجعت وفتحت الباب على مصراعيه ودخلت الغرفة.

ما كادت تخطو خطوتين حتى وقفت مصعوقة. كان ادوارد وارن متمدداً على السرير ويهم باطفاء نور الكهرباء حين فوجيء بزائرته تدخل الغرفة.

وبعد لحظات عدة من الجمود المتبادل استدار ادوارد ليواجهها والدهشة لا تزال تفيض في وجهه ثم سمعته يقول بصوت غلب النعاس عليه:

«سامنتا... سامنتا».

هزت سامنتا رأسها مبعثرة شعرها الذهبي على وجهها وهمست:

«لم... لم ادرك. ظننت ان هذه...».

«هل انت بخير؟ خُيّل لي سماع صوت في الخارج».

اومأت ايجاباً وبلعت ريقها بصعوبة وشعرت انها على وشك الاختناق لكنها استطاعت ان تقول:

«نعم انا بخير - اني آسفة - اني آسفة جداً».

حدق بها لبرهة ثم نهض من السرير وقال لها بصوت خافت:

«تبدين وكأنك خارجة من صدمة. هل انت من اولئك اللذين يمشون اثناء النوم؟».

«كلا - لا ابداً».

تراجعت الى الوراء حين تقدم نحوها فقطب حاجبيه متسائلاً لكنها تابعت:

«ظننت ان هذه... دخلت الغرفة خطأ - اني آسفة».

«اخطأت بالغرفة؟».

وقف يتفحصها وكأنه لم يصدق بعد ما يجري امامه.

«كنت ابحث عن...».

وادركت فجأة انه سوف يصاب بصدمة عنيفة ان اخبرته ان خطيبته كانت تزور رجلاً بعد منتصف الليل فهزت رأسها بسرعة وقالت:

«ليس الأمر مهماً. اني آسفة».

وادركت سامنتا انه غير راغب في ترك الأمور على نصابها اذ تقدم نحوها ووقف امامها وامسك ذراعها في حركة مطمئنة وقال:

«لا احب ان اراكِ مضطربة يا سامنتا. وانت الآن مضطربة لسبب ما - الا يسعني مساعدتك؟».

«لا. لا - شكراً، انا بخير».

استدارت على نفسها كي تعود الى عزيمتها لكنه كان لا يزال يمسك بذراعيها حين ظهر شخص ثالث واقفاً على عتبة الباب المفتوح.

نظرت اليها باتسي غوردن بعينين ساطعتين وظافرتين وابتسمت ابتسامة ساخرة ثم قالت:

«يا للوضع الحميم. هل ازعجتكما؟».

كان من الصعب تحديد اي من سامنتا ام ادوارد ذهل لرؤيتها اكثر من الثاني لأن سامنتا لم تتوقع ابداً ان تجابهها في ظروف كهذه فافلتت بسرعة من يدي ادوارد وقالت:

«حصل خطأ».

فهقهت باتسي ثم قالت:

«طبعاً حصل خطأ».

«كنت اجهل ان هذه غرفة اد. . . عفواً غرفة السيد وارن. لم انتبه».

قرصت باتسي شفتها السفلى بازدراء وسطعت عيناها غضباً وادركت سامنتا انه من الطبيعي ان تحاول باتسي رمي عصفورين بحجر واحد.

«هذه حيلة قديمة. الا يمكنك ايجاد تبرير اخر؟».

«انها الحقيقة».

تمنت سامنتا في هذه اللحظة لو لم تتهور في اتخاذ قرارها بمجابهة باتسي واتهامها بزيارة بارني فهي الآن في وضع المنتصر وقد يصعب على اي كان تصديق اتهاماتها لباتسي الآن.

«هلا قلت لي غرفة من كنت قاصدة؟».

ترددت سامنتا للحظة ثم قالت:

«غرفتك انت».

جمدت باتسي في مكانها وادركت سامنتا ان ادوارد كان يحدق فيها بدهشة وسمعته يقول لها:

«يا لله ماذا تريدين من باتسي في مثل هذا الوقت؟».

قطبت باتسي حاجبيها وكأنها تستعد للانقضاض دفاعاً عن نفسها ثم قالت:

«هذا ما اود معرفته ايضاً».

لم يكن في نية سامنتا ان تثير خلافاً حاداً بينهما واحتارت بين البوح بما رأته والتزام الصمت - ادركت ان باتسي غير مكترثة كثيراً باحتمال انكشاف امرها فهي على عكس سامنتا لم يقبض عليها بالجرم المشهود ومن السهل عليها الادعاء ان اتهام سامنتا لها نابع عن محاولة لابعاد الشبهات عنها فقالت سامنتا:

«اردت مقابلتك، لا غير».

«كي نتحدث بقلب مفتوح؟».

اثارت سخريتها غضب سامنتا من جديد فقالت:

«اظن انك تعرفين السبب».

«بدت باتسي وكأنها فهمت اخيراً خطورة موقفها فرفعت كتفيها وادعت التعب الشديد ثم قالت:

«الوقت متأخر جداً الآن ولا يلائم خوض نقاش طويل. اني ذاهبة الى الفراش ونصيحتي لك ان تفعلي مثلي قبل ان نوقظ نزلاء الفندق جميعهم».

حدقت بها سامنتا للحظة وهي تشعر برغبة جامحة في اخبار باتسي انها رأتها، لكنها عجزت عن ايجاد الكلمات المناسبة فاستدارت فجأة وعادت الى غرفتها ثم اقفلت الباب من دون ان تنظر اليها كان بودها ان تعتذر مرة اخرى لادوارد وارن لكنها لم تعد تتحمل مواجهتها مدة اطول وشعرت برغبة جامحة في البكاء.

اسندت ظهرها الى الباب وبدأت الدموع تنهمر على خديها وادركت ان سبب الدموع لم يكن مقتصراً على اهانة باتسي لها حين فاجأتها في غرفة خطيبها بل شمل تلك الصورة المؤلمة لباتسي عائدة من غرفة بارني. شعرت وكأن بارني خانها فارتمت على السرير وأجهشت في البكاء كطفلة صغيرة.

افاقت سامنتا في الصباح التالي وقد اثقلت الدموع جفنيها وآلمها صداع في رأسها لكنها شعرت بتحسن طفيف بعد ان استحمت فارتدت ثيابها وقررت النزول لتناول الافطار.

فوجئت مفاجأة مزعجة حين رأت ادوارد وباتسي وقد جلسا الى طاولة تتسع لاربعة اشخاص واستنتجت ان بارني لبى رغبة باتسي بشأن الطاولة. حاولت جهدها للتظاهر بعدم الاكتراث لكنه صعب عليها تحمل ابتسامة الرضى التي علت ثغر الفتاة الشقراء وخاصة بعد احداث الليلة الماضية.

نهض ادوارد عن كرسيه حين وصلت، فيما بقيت باتسي جالسة ونظرت اليها مبتسمة ثم قالت بتهكم:

«هذا تغيير نحو الأفضل».

قطب ادوارد حاجبيه لبرودة استقبال خطيبته لسامنتا وقال:

«ارجو الا يكون لديك مانع يا سامنتا».

اكتفت سامنتا برفع كتفيها وادركت ان لا اهمية لممانعتها او عدمها لكون باتسي ستعتبر ممانعتها من باب الغيرة لا غير فتسر بها. لم يكن هناك اثر لبارني بعد وتساءلت سامنتا عما اذا كان تعمد التأخر كي يتجنب التبرير لها عن مطالبته بتغيير ترتيب الطاولة وقالت:

«لا فارق عندي».

ثم رمقت ساعة يدها وقالت:

«تأخر بارني».

قهقهت باتسي وحدقت في سامنتا بعينيها الزرقاوين ثم قالت:

«لربما اقلقه شيء ما وهو يحاول تعويض ما خسره في النوم».

كان كلامها موجهاً لسامنتا فقط وشعرت بموجة من الغضب تعتريها وقد ازعجها قلة اكتراث الفتاة باحتمال افشائها لسرها وادركت سامنتا ان امامها نهاراً قاسياً ورفضت تناول الافطار مكتفية ببعض القهوة:

«لا اريد سوى بعض القهوة. لست جائعة؟».

«هل انت مريضة؟».

«لا ابداً. انا بخير يا ادوارد. شكراً».

وقالت لها باتسي بصوت معسول:

«اظنك تعانين من عوارض ما بعد الصدمة، فيا لها من صدمة حين يفاجأ المرء اثناء سيره خلال النوم».

«انا مصابة بصداع. اظن انه سيزول متى تنشقت هواء منعشاً».

«اثناء السير؟».

«ربما».

شربت فنجانين من القهوة القوية ثم جلست تفكر انه عليها اتخاذ قرار بشأن باتسي غوردن. لن يجديها نفعاً ان تخوض خلافاً معلناً بل يكفيها ان تقطع شعرة معاوية بينها وبين بارني فتكون قد انتقمت لنفسها - لن يسر حتماً لتركها له مجدداً لكنه سوف يدرك ان باتسي هي سبب رحيلها ولن يعود متلهفاً لكسب ودها او ربما فعل ذلك.

صعدت الى غرفتها قبل مجيء بارني وتكهنت ان باتسي سوف تبقى في انتظار وصوله غير مكترثة برأي ادوارد في الموضوع، ولربما

حالفها الحظ ونجحت في تنفيذ خطتها فجلست في غرفتها تنتظر سماع صوت الباب المقابل يفتح ثم يقفل.

وكما توقعت وبعد مرور عشر دقائق سمعت وقع خطى في الممر ثم صوت باب الغرفة رقم ثلاثة ينفتح. فخرجت بسرعة من غرفتها ورأت ادوارد على وشك اقفال باب غرفته فابتسمت له وقالت:

«هل تسمح لي بمحادثتك لبضع دقائق يا ادوارد».

تردد لبرهة ثم اومأ ايجاباً وخرج الى الممر مجدداً وقال:

«طبعاً. ما الخبر يا سامنتا؟ هل يمكنني مساعدتك؟».

«بامكانك مساعدتي ان اردت ذلك».

«طبعاً».

تقدم نحوها ووقف امامها ثم تردد قليلاً قبل ان يأخذ يديها بين يديه ويقول:

«كنت متأكداً ليلة البارحة انك لست على ما يرام. وعرفت اليوم انك بكيت - اريد مساعدتك يا سامنتا. ارجوك. قولي لي ما يمكنني ان افعل».

ابتسمت سامنتا ثم قالت:

«اود ان تساعدني على الهرب من دون ان يدري بي احد».

نظر اليها ادوارد بتعجب ثم قال:

«الهرب. لا افهمك جيداً يا سامنتا».

«آه!».

اخفضت عينيها باتجاه يديها المتشابكتين وشعرت ببعض الذنب لاستغلالها طيبته واستعداده لمساعدتها برغم تأكدها من ان باتسي لن تحب أن يساعدها.

«اريد مغادرة هذا المكان. هذا كل ما في الأمر».

«لكن. بارني».

«اود الابتعاد عن بارني بالذات. لا اريده ان يعرف اني ذاهبة يا ادوارد ولهذا السبب طلبت مساعدتك. هل تقبل؟».

بدا متردداً وحتى انها لمست بعض الخوف فيه واستغربت ان يكون بارني يخيفه. وعادت الى ذاكرتها لحظة توسل منها الا تخبر بارني انه عانقها وهي الآن تطالبه بالكثير لكنها شعرت انها لم تعد تتحمل الوضع بين بارني وباتسي فقالت له بصوت متوسل.

«ارجوك يا ادوارد».

«حسناً - حسناً - لا افهم تماماً ما يدفعك الى الرحيل من دون اخبار بارني لكني سأساعدك ان امكن ذلك!».

«آه. طبعاً يمكنك مساعدتي. شكراً لك يا ادوارد. الف شكر».

تطاولت وقبلته على خده مما زاد في اضطرابه فلمس خدها باصبعه وقال:

«اخبريني الآن ماذا تودين ان افعل. واعدك اني سأفعل كل ما بوسعي لمساعدتك».

«اطمئن فطلبي سهل التنفيذ. اظن ان بارني يتناول الافطار حالياً اليس كذلك؟».

اومأ ايجاباً وقطب حاجبيه حين عادت الى ذهنه صورة المشهد الذي عاشه لتوه في المطعم: «اصرت باتسي ان تبقى برفقة بارني فتركتهما».

ونظر اليها لبرهة وكأن من واجبه الاعتذار عن تصرفات باتسي ثم قال:

«اظن انك تريدين الرحيل بسبب ما يجري بينهما».

اخفضت سامنتا عينيها وقالت:

«نوعاً ما».

«اني آسف جدا يا سامنتا. ادرك تماماً ما تشعرين لكن ارجوك الا تتهوري بسبب هذا الشيء. انا اعرف باتسي. واعرف ان المسألة لن تدوم».

«ظننت انا ايضاً اني اعرف بارني. ولكن.. لكني اريد الرحيل يا ادوارد. ارجوك».

بدا تعيساً اكثر من اي وقت مضى لكنه قال:

«انت بحاجة الى سيارة تاكسي. اتودين ان اطلب لك واحدة؟».

«ارجوك و.. وهل بامكانك ان تطلب من السائق الا يثير ضجة حين يصل لئلا يراه بارني؟».

«سأطلب منه ذلك برغم انني لا اعرف مدى استعداده للتقيد بهذا الأمر».

«حاول في اي حال».

ابتسمت له من جديد ثم سألته:

«هل ترافقني الى المحطة يا ادوارد؟ اكون شاكرة لك الى الأبد ان اتيت».

«نعم – طبعاً سأرافقك».

«شكراً».

فكرت سامنتا ان تغيبه لبعض الوقت سوف يقلق حتماً باتسي.

نزل ادوارد لاجراء المخابرة فيما انتهت من تحضير حقيبتها وعاد بعد قليل فسلمته حقيبتها وسارت خلفه في الممر ثم نزلا الى الباحة وقلبها يخفق بسرعة جنونية. ادركت انه اذا كان بارني ما زال مصمماً على اقناعها بالزواج منه فسوف يلحق بها، اما اذا كان يشعر ان

توطيد علاقته بباتسي اهم بالنسبة اليه من زواجه منها فلن يكلف نفسه عندئذ عناء اللحاق بها. وشعرت بموجة من الذعر تجتاحها لاحتمال عدم لحاقه بها. وسمعت ادوارد يسألها حين وصلا الى المحطة:

«هل انت متأكدة من ان الأمور ستسير على ما يرام؟ لا احب فكرة رحيلك بمفردك يا سامنتا».

«لن يصيبني اي مكروه – لا تقلق».

وتساءلت عن سبب صرفه سائق التاكسي واصراره على العودة الى الفندق سيراً على الاقدام، قد يكون فكر ايضاً بازعاج باتسي لبعض الوقت خاصة ان بارني سيكتشف اولاً اختفاء سامنتا وحقيبتها فيطرح غياب ادوارد ايضاً تساؤلات عديدة قبل ان يكتشفا ان حقيبته لا تزال في غرفته – لكن الخطوات هذه سوف تستغرق بعض الوقت وقد تستغل باتسي هذا الوقت كي تدرك انه من الأفضل لها الا تفقد ادوارد وان تقلع عن تصرفاتها التافهة هذه خاصة ان بارني سيثور غضبه حين يكتشف هربها وسيعبر عنه بطريقة او باخرى.

قطعت تذكرة سفر الى مدينة كارليل وقدّرت انه بوسعها التوجه منها الى منطقة البحيرات من جديد والبقاء فيها لبعض الوقت. كانت متأكدة ان لن يسهل على بارني اللحاق بها هذه المرة كونه لا يعلم وجهة سفرها ولن يستطيع موظف البطاقات العجوز في قرية بنفار ارشاده اليها لعدم ملاحظته لها بعكس الموظفين الشباب في المحطات الاخرى.

كان القطار يسير ببطء لكن المناظر الطبيعية المحيطة بها كانت رائعة الجمال فشعرت سامنتا برغبة بالارتخاء والاستمتاع بها ولم يكن في مقصورتها سوى امرأة عجوز غارقة في حياكة الصوف ورجل يقرأ كتاباً مما اراحها من عناء الخوض في احاديث السفر التقليدية.

احست برغبة في الهدوء والعودة الى نفسها للتفكير بخطوتها المقبلة. لربما تمكنت من مخابرة العم نيكولاس من مدينة كارليل واخبرته انها بخير وانها عادت الى انكلترا من جديد وانها تتوق الى العودة الى المنزل شرط الا يثار موضوع زواجها من بارني من جديد وادركت ان عليها اقناعه ان زواجها من بارني غير وارد قطعاً في الحاضر.

وفوجئت ثم ذهلت بدمعة ثقيلة تتدحرج على خدها ثم تبعتها ثانية وثالثة وكرت السبحة من دون ان تتمكن من السيطرة عليها. لم تكن في حياتها من النوع الذي يبكي بسهولة وها هي تجهش بالبكاء للمرة الثانية في اقل من اربع وعشرين ساعة.

تناولت منديلاً ومسحت دموعها ثم وضعت نظارات شمسية داكنة لتخفي تورم جفنيها واحمرار عينيها عن المسافرين في مقصورتها.

تذكرت اثناء ترجلها من القطار في كارليل انها نسيت ان تدفع فاتورة الفندق وتصورت غضب بارني حين يكتشف ذلك اضافة الى غضبه لهربها ولم تستطع ان تتماسك عن الضحك.

خابرت العم نيكولاس من كشك هاتف وجدته امام المحطة وما لبثت ان سمعت هدير صوته المألوف في اذنها وقد ارتاح كثيراً حين سمع صوتها وقال:

«حبيبتي سامنتا - آه يا حبيبتي هلا توقفت عن اخافتنا بهذا الشكل».

«آسفة يا عزيزي. صراحة. لم يكن في نيتي ان اخيف احداً».

«خابرني بارني لتوه. وقال لي انك عدت الى الهرب من جديد لماذا؟».

«الم تسأله السبب؟ فالمفروض ان يكون هو اول العالمين

بالسبب».

«طبعاً سألته وقال لي انه لا يعرف».

«يا له من . . .».

امسكت آلة الهاتف بقوة وشعرت برغبة جامحة في تحطيمها على رأس بارني المتعجرف لكنها سمعت نيكولاس يقول لها:

«هل يعني ذلك انكما اختلفتما من جديد».

«نعم من جديد».

«ولكن لماذا؟ ليس من عادتكما ان تختلفا. كنت في الماضي . . .».

«مرنة المزاج؟ اهذا ما تريد قوله. حسناً لكني اعلمك اني لم اعد كذلك».

«يبدو لي انك تتصرفين بعناد وتهور واتساءل صراحة كيف استطاع بارني تحملك طيلة هذه الفترة من دون ان ينفد صبره».

«لقد نفد صبره مرات عديدة».

«لا عجب».

«آه يا عمي نيكولاس. لا تتحيز لبارني. اريد حقاً العودة الى البيت لكن. . . لكن لا اريد الزواج من بارني».

«ولكن لماذا يا حبيبتي؟».

«لأني. . . آه لاني لا احب ان تفرض علي الأمور. ارجوك ان تفهمني يا عمي نيكولاس».

«اني احاول فهمك يا حبيبتي. لكنك تعرفين بارني لمدة طويلة الآن وتعلمين حتماً حقيقة شعورك نحوه».

«هنا المشكلة يا عمي فاني لا اعرف. ومعرفتي به طيلة هذا الوقت لم تتح لي التعرف على اي رجل غيره. كل شيء كان مبرمجاً في حياتي حتى الآن وشعرت برغبة في التحليق بجناحيّ لبعض الوقت والتطلع

حولي كي اتحقق ان كان هناك احد افضله على بارني».

«سامنتا».

«ولم لا يا عمي. . ، لم لا؟».

«تقصدين رجالاً كبيل سميث او الفنان بيتر مجهول باقي الهوية او هاوي السير على الاقدام».

شعرت بغضب شديد نحوه وكأنه يتهمها باقامة علاقات وثيقة مع كل من اولئك الرجال ولا بد ان يكون بارني هو الذي اعطاه هذا الانطباع المشوه عن الواقع.

«كان يجدر بي ان اعرف ان بارني قادر على اختلاق قصص وتعظيمها حسب مزاجه».

«لم يختلق اية قصة في الحقيقة».

«وما تسمي اذن تلك الاخبار التي ابلغك اياها؟ ولماذا لم يخبرك عن قوافل الفتيات الشقراوات اللواتي تركناهن جاثيات في كل انحاء البلاد او عن الآنسة باتسي غوردن التي امضت جزءاً من الليلة الماضية في غرفته؟».

«سامنتا».

«آه. . كنت متأكدة انه لن يخبرك عن هذا التفصيل الصغير».

«يا حبيبتي، انت حتماً على خطأ فبارني يحبك».

«يا لغرابة اسلوبه في التعبير عن هذا الحب».

وذهلت بالدموع تعود الى الانهمار على خديها لكنها تابعت قائلة:

«انه يكره فكرة افلاتي من بين يديه فلقد تعود اعتباري ملكاً له ويتوقع ان أنفذ طلباته وكأني كلب صغير مدرب على الطاعة وذلك بغض النظر عن نشاطاته ومغامراته العاطفية. اني ارفض قضاء بقية حياتي مكتفية باطاعة اوامره فيما يواصل نشاطاته النسائية مع كل فتاة

شقراء يصادفها».

«آه يا حبيبتي انت حقاً مضطربة».

ادركت انه قلق عليها وتمنت لو كانت في البيت برفقته واستطاعت البكاء على كتفه الحنونة لكنها الآن في كشك حديدي في كارليل ومعرضة للانهيار بين اللحظة والاخرى.

«انا بخير. انا حقاً بخير يا عمي نيكولاس لا تقلق. كل ما في الأمر اني غاضبة».

«غاضبة من بارني».

«طبعاً من بارني الا يحق لي ان اغضب منه».

تنهد بعمق ثم قال:

«لا ادري ما اقول لك يا حبيبتي. هل ستعودين الى البيت؟».

قاومت الاغراء المعروض عليها بكل قواها وهزت رأسها وكأنه يستطيع ان يراها:

«كلا - ليس الآن يا عمي، اني افكر في الذهاب الى البحيرات من جديد وامضي فيها يوماً او يومين حتى تتبلور الأمور في ذهني فهي منطقة رائعة وهادئة».

«اليست اسكتلندا ايضاً منطقة رائعة وهادئة؟».

«لا هدوء حيث بارني وباتسي غوردن. سأكون بخير يا عمي نيكولاس لا تقلق بشأني ارجوك».

تنهد بعمق وكأنه رضخ للأمر الواقع ثم قال:

«حسناً يا حبيبتي لكن ارجوك الا تنسي ان تتصلي بي بين الحين والآخر، اذ يقلقني ان تسافري بمفردك ومن دون بارني».

«سأتصل بك. اخابرك لحظة وصولي الى بونس. اعدك بذلك يا عمي نيكولاس».

«حسناً. وحاولي يا حبيبتي ان تعودي قريباً لقد اشتقنا اليك

كثيراً».

اكتفت سامنتا بالتفوه بكلمة «وداعاً». اذ كانت الدموع الساخنة عادت الى الانهمار وشعرت وكأن كتلة تسد حلقها. وتمنت لو كان بوسعها التخلص من تعاستها الحالية ومن تلك الفكرة التي ما لبثت ترافقها، ان باري سيلحق بها من جديد.

٩ - فندق سعيد الحظ

تمكنت سامنتا من الحصول على غرفة في فندق ستاغ في قرية بونيس. وقد دفعها حنين قوي الى الماضي لاختيار الغرفة ذاتها التي نزلت فيها على طريق الذهاب الى اسكتلندا.

خرجت من الفندق في الصباح التالي لنزهة على ضفاف البحيرة. كان الجو هادئاً ومنعشاً تحت الاشجار الظليلة ولا احد يزعجها او يتجادل معها لكنها بدأت تتوق الى من تتكلم معه.

اغاظتها الدموع التي عادت الى التجمع في عينيها من دون سبب فمسحتها بسرعة وعادت الى ذاكرتها ما كانت تكرره دائماً لباري من ان الدموع للاطفال والأولاد وهي لم تعد اياً منهما. باري! ها قد عادت الى التفكير به وادركت انها لم تفكر به في حياتها بالقوة والاستمرارية كما هي هذه الأيام.

وباري سعيد حتماً الآن حيث هو ويستغل فرصة وجود باتسي غوردن معه وميلها الواضح نحوه خاصة ان ادوارد سيكتفي على الأرجح بدور المشاهد ولن يتدخل بينهما ابداً.

تراءت لها من جديد صورة باتسي وهي تتسلل عائدة من غرفة باري فازدادت غزارة الدموع في عينيها حتى انها حجبت عنها الرؤية كلياً.

امضت الليلة الفائتة تراقب المسافرين الجدد وتنتظر ظهور رأس

بارني الداكن المألوف، وحتى انها حين صعدت الى الفراش بقيت مدة طويلة تنصت الى الاصوات في الممر لعلها تسمع صوته العميق والمطمئن او قرعاً على بابها لكن دون جدوى.

كانت قد تناولت العشاء في الليلة الماضية برفقة سيدة متقدمة في السن لم تحاول فتح احاديث معها لادراكها ان سامنتا تفضل الوحدة. كلمتها قليلاً حول مائدة الافطار ولاحظت سامنتا انها سيدة لطيفة جداً وتشعر ببعض الوحدة. راحت تفكر اثناء سيرها انه لربما ارتاحت قليلاً ان وجدت شخصاً تستطيع التحدث اليه عن مواضيع عامة فتنسى بارني قليلاً اذ ادركت انه تحول الى هاجس لا يفارقها لحظة.

سمعت وقع خطى على الأوراق الجافة فالتفتت وابتسمت لا شعورياً حين رأت السيدة العجوز تتقدم نحوها وتجلس الى جانبها بالقرب من ضفة البحيرة.

«هذا المكان رائع الجمال. الا توافقين؟».

اومأت سامنتا ايجاباً وقالت:

«انه ساحر».

«انا اقصده منذ اكثر من ثلاثين عاماً ولم اسأم منه بعد فهو يبدو لي مختلفاً في كل مرة».

ثم ضحكت معتذرة وقالت:

«ولربما ظننت اني اناقض نفسي لكني متأكدة من انك فهمت قصدي».

«وطبعاً. يشعر المرء انه مهما تغير الناس الوافدون الى هذا المكان، الا انه يبقى وسيبقى حتى بعد ان نزول نحن».

ابتسمت المرأة بلطف وقالت:

«هذه ملاحظة يا عزيزتي صحيحة ايضاً. هل تعلمين اني اتيت

للمرة الأولى الى هنا منذ ستة وثلاثين عاماً وامضيت شهر العسل فيه واني اعود اليه كل عام».

غصت عينا سامنتا بالدموع لسماعها قصة هذا العاطفي وتساءلت عن مدة ترمل المرأة اذ كان من الواضح انها فقدت زوجها والا لما كانت الآن بمفردها وحاولت سامنتا ان تسألها:

«هل؟ كيف. . .؟».

وفهمت المرأة قصدها فابتسمت قائلة:

«عشنا سوية ثلاثة وثلاثين عاماً في الهناء وكنا نأتي أنا وزوجي شارلز كل سنة في عيد زواجنا وحين توفى، منذ عامين شعرت انه علي الاستمرار في القدوم لذكراه».

ثم ابتسمت معتذرة وقالت:

«قد ابدو لك غريبة الأطوار خاصة أنك شابة في اول حياتك - اليس كذلك؟».

«لا ابداً بل ان قصتك رائعة الجمال، رائعة الجمال».

«هل انت بمفردك ايضاً؟».

«نعم».

مدت يداً رقيقة وامسكت يدها بلطف وتفهم ثم قالت:

«اني آسفة يا عزيزتي لا يحق لي التطفل. لكنك في عز الشباب وجمالك اخاذ فاستغربت كونك تسافرين بمفردك واعترف لك اني فضولية لمعرفة وضعك».

«لا امانع في ذلك ابداً».

ابتسمت المرأة وقالت:

«اسمي استر كولنز، اظن اننا لم نتعارف بعد».

«سامنتا داوليش».

ابتسمت ثم التفتت نحو المرأة فلاحظت نظرة تعجب في عيني

استر كولينز التي صاحت:
«لكن يا عزيزتي - يا للصدف - الا تسكنين في قرية ليتل دبستوك في مقاطعة ساري».
«نعم. انت على حق ولكن بالله كيف...؟».
«لانه سبق ان التقينا. لكن لا اظن ابداً انك تذكرين ذلك كنت في التاسعة او العاشرة من العمر وقتذاك».
«صحيح».
تفحصتها سامنتا لبرهة من غير ان تجد في ملامحها اي شيء مألوف واعترفت:
«لا اتذكرك ابداً. اني آسفة».
«ولم تأسفين؟ كنت طفلة يومها. كنت فتاة صغيرة وجميلة جداً».
ابتسمت سامنتا وقالت:
«يسرني سماع هذا. هل كنت تعرفين عمي يا سيدة كولنز؟».
«ليس معرفة شخصية. لكن شقيقي كان يعرفه وزوجي شارلز ايضاً من خلال علاقات العمل. لقد تقاعد اخي حالياً وهو يكبر عمك سناً لكني متأكدة من انه سيتذكرك ان اخبرته عنك. ان ذاكرتي قوية جداً ونادراً ما انسى شخصاً قابلته. كان عمك اسمه نورمان.. لا نيكولاس داوليش اليس كذلك؟».
«صحيح، عمي نيكولاس هو الوصي علي منذ ان كنت في الثالثة من عمري».
«اذكر ذلك لكنك لم تكوني برفقته ذلك اليوم في بيت اخي بل كنت مع روبرت فوستر وابنه».
«باري».
تفوهت سامنتا باسمه وراح قلبها يخفق بسرعة جنونية وبدا وكأن لن يسمح لها ان تتناساه ولو للحظة.

«صحيح، اذكر اننا التقينا به من جديد مرة او اثنتين، كان آخر لقاء بيننا بضعة اشهر قبل وفاة شارلز واخبرنا يومها انه...».
اخفضت عينيها بسرعة تبحث عن خاتم الخطوبة في اصبع سامنتا ولاحظت غيابه وفهمت.
وادركت سامنتا انها فهمت فقالت لها:
«كنا مخطوبين».
«صحيح - اخبرنا بهذا».
ايقنت سامنتا ان السيدة متلهفة لسماع بقية قصتها مع باري لكن رقة احساسها منعتها من السؤال فقالت لها:
«الأمور معقدة قليلاً الآن. اظن اننا فسخنا الخطبة».
«فهمت».
ورمت السيدة العجوز بنظرة خاطفة ففوجئت بها تبتسم ابتسامة طفيفة لم تخل من بعض السخرية فعضت سامنتا على شفتها وقد هددت الدموع بالانهمار من جديد لكنها سمعت السيدة تقول لها:
«اني آسفة يا عزيزتي ولكن يا لغرابة الصدف من جديد. ولا يسعني الا ان ابتسم لهذا الشيء».
«الصدف؟».
«الست مصيبة في افتراضي انك اختلفت مع السيد فوستر الابن؟».
«نعم. اختلفنا».
«وانا ايضاً اختلفت مع شارلز حين كنا مخطوبين واتيت الى هذا المكان لأختبىء».
«فهمت الآن يبدو لي اننا في خلاف دائم هذه الأيام ولم نكن هكذا من قبل».
هذه علامة طيبة نوعاً ما. انتما تعرفان بعضكما منذ زمن بعيد.

أليس كذلك؟».

«منذ زمن بعيد جداً - اعرف باري منذ كنت في الثالثة من عمري وهو كان في الحادية عشرة».

«مثلي انا وشارلز - انتقلت عائلتي الى منزل قريب من بيت آل كولنز حين كنا انا وشارلز في التاسعة من عمرنا وكبرنا معاً نوعاً ما».

تفحصت سامنتا وجه المرأة الرقيق والهادىء وفكرت انها وجدت اخيراً من يفهم حالتها النفسية لمرورها بظروف مماثلة وسألتها:

«هل كنتما تتجادلان كثيراً؟».

ابتسمت استر كولنز ثم اعترفت قائلة:

«كالكنة والحماة مما اذهل الجميع اذ كنا نتفق تماماً حول كافة الأمور حين كنا اصغر سناً وما ان نضجنا قليلاً حتى تحولت علاقتنا فلم تعد مجرد علاقة بين اخ واخته بل بدأت الخلافات بيننا ولقد اغاظني يوماً الى درجة حملتني للهرب والمجيء الى هذا المكان للاختباء بعض الوقت وصرف المسكين شارلز جهداً حثيثاً حتى عثر علي».

نظرت الى سامنتا بعينين فاضتا لطفاً وتفهماً ثم سألتها:

«هل انت الآن في الوضع ذاته يا عزيزتي؟ هاربة؟».

«نعم. لكن حالتي كانت اسوأ من حالتك... هل كنت سعيدة في حياتك يا سيدة كولنز رغم انك كنت تعرفينه لفترة طويلة قبل الزواج، هل كنت حقاً سعيدة معه؟».

«كنت سعيدة جداً جداً يا سامنتا لأننا كنا نعرف بعضنا معرفة وثيقة حين تزوجنا وهذا نادر حصوله في حالات الزواج الاخرى. لم يكن هناك نواح مخبأة في طبعينا. لا نزوات ولا فضائل سرية تضطرنا الى مجابهتها لاحقاً. كنا قد تخطينا كل هذه العقبات قبل الزواج وقد ساعدنا هذا كثيراً».

«اصدقك. لكن باري مختلف. فهو... فهو يحب النساء. لا

اعني بذلك انه يقيم علاقات جنسية معهن كيفما اتفق لا. لا تظني هذا ارجوك لكن...».

ضحكت رفيقتها بصوت ناعم وهزت رأسها قائلة:

«اذكر انه رجل وسيم للغاية واتوقع ان يجذب عدداً وافراً من النساء كحالك انت مع الرجال يا عزيزتي، ولا سبب للخجل من هذا الأمر لكني اعرف انه يصعب على المرء تقبله حين يكون شاباً ومغروماً».

«ليتني اعرف ما العمل».

«هل يساعدك ان تخبريني عنه».

«ربما».

تعجبت سامنتا للسهولة التي لاقتها في البوح للسيدة اللطيفة بكل ما مرت به اثناء رحلتها الحالية من دون ان تشعر بالمرارة كما من قبل. حين انتهت من قصتها التزمت استر كولنز بالصمت ثم تنهدت وهزت رأسها قائلة:

«يا لعناء الرحلة التي فرضتها على هذا الشاب المسكين».

ثم ابتسمت مطمئنة واضافت:

«لكنه سيعثر عليك - لا تقلقي سيجد سبيلاً للعثور عليك ان كان يحبك فعلاً».

«لكني لست متأكدة من انه يحبني. ليتني اعرف».

ارتاحت كثيراً لحديثها مع السيدة كولنز اللطيفة وادركت ولأول مرة كم افتقدت لمسة انسانية في سني نموها وبدت لها هذه السيدة اللطيفة وكأنها مستعدة للاهتمام بها رغم كونها لم تلتق بها الا مرة واحدة منذ سنوات عديدة.

تحدثتا كثيراً عن زيارات السيدة كولنز السابقة لقرية بونس برفقة زوجها وعن وجبات الطعام الشهية التي تقدم لها وادركت سامنتا انها

ارتاحت كثيراً لهذا النهار الذي قضته وفقاً لتطلعاتها. ولم يزعجها سوى انها وجدت نفسها في حال انتظار مستمرة لوصول باري وحين لم تره على العشاء ايقنت انه ربما لن يأتي ابداً.

نظرت اليها السيدة كولتز اثناء تحريكها للسكر في قهوتها وسألتها:

«هل من اثر لصاحبك الشاب».

هزت سامنتا رأسها وقالت:

«لا تتصوري ان اتوقع قدومه. فهو وعدني انه سيحطم عنقي ان هربت منه مرة اخرى لكني اعتقد انه فهم قصدي اخيراً».

«قصدك؟».

«نعم. اي اني اريد الانفراد بحالي ولا اريد رؤيته».

«آه. فهمت. لقد كلفت نفسك عناء شاقاً لافهامه هذا الشيء».

«حاولت المستطاع. آمل ان يعود الى البيت ويتركني وشأني».

«وماذا ستفعلين انت عندئذ؟».

فوجئت سامنتا بسؤالها وقالت:

«انا؟».

«نعم. انت. هل ستعودين الى البيت ايضاً؟».

كانت تشعر برغبة جامحة في العودة الى البيت لكنها ادركت انه لن يسهل عليها ذلك خاصة اذا كان باري قد سبقها اليه مؤكداً بذلك انتهاء العلاقة بينهما وسوف تلاقي صعوبة جمة في مواجهة الجميع. عمها نيكولاس وعمها روبرت وحتى باري ولن تعود الأمور الى سابق عهدها ابداً. وقالت فيما احست بثقل كبير يضغط على صدرها:

«اعتقد اني سأعود، نعم طبعاً سأعود».

جلست في البهو تنظر الى التلفاز من دون ان ترى اي شيء وقررت الصعود الى الفراش حين انتبهت الى وصول بعض المسافرين

فوقفت في الباب تراقبهم جامدة كالحجر واذ بباري يجري امامها. نظر اليها وقد سطعت عيناه كالجمر في دكنة الممر لكنه لم يبتسم وقال:

«مرحبا يا سامنتا».

انتابها ذعر شديد حين رأت برودة استقباله ولم تستطع التفوه الا بكلمة:

«مرحبا».

ظهرت باتسي غوردن خلفه وقد بدا عليها التعب الشديد فيما كان ادوارد وارن مقطب الحاجبين لكنه استطاع ان يبتسم لها حين خاطبها قائلاً:

«مرحباً يا سامنتا».

تجاهلت الفتاة الشقراء وحيّت ادوارد ثم اعتذرت قائلة:

«عفواً اني اسد المدخل».

خيم سكوت ثقيل على الجو بينهم للحظة ثم تقدمت باتسي غوردن وتوجهت الى البهو من دون ان تبتسم واعتذر ادوارد ثم لحق بها تاركاً سامنتا وباري وجهاً لوجه في نور الممر الخافت وسمعته يقول لها:

«اعذريني انا ايضاً».

وتوجه بدوره الى البهو تاركاً سامنتا مدهوشة لا تستطيع الحراك.

«باري».

التفت ونظر اليها متسائلاً من دون ان يظهر اي اثر لابتسامة على ثغره او في عينيه حتى انها شعرت وكأنها في حضور رجل غريب وقالت له بسرعة:

«انا سعيدة بمجيئك».

«لن امكث هنا بل توقفت في طريقي الى البيت».

«آه باري اني . . .».

«هل كنت تهمين بالصعود الى الفراش. لا تدعيني اعيقك».

«اني . . .».

«طابت ليلتك يا سام».

استدار ودخل البهو ثم اقفل الباب وراءه.

وقفت سامنتا في مكانها لحظات مدهوشة وقد اذهلتها سرعة تتابع الاحداث وشعرت بالدموع الغزيرة تتدفق على خديها فهرعت الى غرفتها. ادركت ان باري قرر الرضوخ اخيراً لرغبتها والتوقف عن محاولاته لاقناعها بالعدول عن قرارها بعدم الزواج منه وقد انزل بها هذا التحول المفاجيء صدمة عنيفة.

خلعت ملابسها واستلقت على الفراش ثم دفنت وجهها في الغطاء لكتم تنهداتها وراحت تنصت لا شعورياً الى قرع محتمل على بابها لكن دون جدوى. سمعت لاحقاً بعض الاصوات والهمس في الممر فجلست تصغي اليها الى ان اختفت ثم زالت نهائياً.

لم تتوقع ان تنام لكنها نامت وأفاقت في الصباح التالي والشمس قد اشرقت منذ زمن.

اختارت لا شعورياً فستانها الأخضر الفاتح الذي يحبه باري وصففت شعرها بالأسلوب الذي يفضله. كان منظرها جميلاً جداً حين دخلت قاعة الطعام وابتسمت لها السيدة كولنز باعجاب ثم قالت:

«ها قد لحق بك شابك كما توقعت انه سيفعل».

هزت سامنتا رأسها وقالت:

«ليس فعلاً كما توقعت. فهو في طريقه الى البيت ولم يأت بمفرده ايضاً».

«هل تعنين الرجل والمرأة اللذين قدما برفقته ليلة البارحة».

«نعم انهما الشخصان اللذان اخبرتك عنهما».

«لقد غادرا باكراً».

«لقد! لقد غادرا الفندق».

«نعم. تناولا الافطار باكراً ثم رحلا في ثياب المشي رأيتهما من نافذة غرفتي».

«آه فهمت».

ثم نظرت اليها وقد اتسعت عيناها خوفاً وسألتها متوسلة:

«وباري؟».

«اطمئني فهو لا يزال هنا فلم ينزل لتناول افطاره بعد. هل ستعودين برفقته الى البيت يا عزيزتي؟».

كان بود سامنتا ان تعرف الجواب لهذا السؤال لكنها هزت رأسها ببطء وقالت:

«قد لا تسنح لي الفرصة. اخشى ان تكون الأمور قد تغيرت يا سيدة كولنز».

«تغيرت. . . لا يمكن ان تكون تغيرت كثيراً يا عزيزتي. فباري موجود هنا وهو في طريقه الى البيت ويتوقع حتماً ان يأخذك معه».

«لا اظن ذلك».

كان من الصعب عليها مواجهة الواقع الأليم لكنه واضح بعد ليلة البارحة ان باري لم يعد مهتماً بما تفعله او تقوله.

كانت على وشك التكلم حين رأت باري يدخل ويحييها ببرودة مؤدبة ثم يجلس الى طاولة منعزلة وينهمك بلائحة الطعام. لاحقته السيدة كولنز بنظرها وتفحصته بتمعن لبرهة ثم التفتت نحوها وابتسمت قائلة:

«لا تحملي الأمور محمل الجد. كل شيء سوف يسير على ما يرام».

«كلا. انا اعرفه يا سيدة كولنز فهو عنيد جداً وان كان قد قرر انه انتهى من علاقته بي فسوف ينفذ قراره».

ابتسمت السيدة بلطف وكأنها تسألها عن ردة فعلها ثم قالت:
«ولكن الم تخبريه ان هذا مطلبك؟ لا يمكنك لومه اذن ان كان يتقيد بكلامك. اليس كذلك؟».

«آه. لست ادري ما العمل الآن. اتمنى لو لم آت ابداً الى هذا المكان بل ان اكون قصدت البيت مباشرة عند عمي نيكولاس».

«انت مضطربة جداً الآن وهذا طبيعي ولم تأكلي اي شيء. لماذا لا تتناولين بعضاً من هذا الطعام الشهي ثم تقومين بنزهة هادئة وجميلة على ضفاف البحيرة بين الاشجار؟».

«لا اريد اي طعام».

هزت السيدة رأسها وابتسمت بلطف وقالت:
«تجويع النفس بسبب الحب، من العادات القديمة والسخيفة يا عزيزتي».

بسبب الحب، القت سامنتا نظرة على ملامح بارني الداكنة فيما جلس وكأنه غير معني ابداً بالأمر وعضت على شفتها بيأس. فات الأوان الآن لتكتشف انها واقعة حقاً بحب بارني.

اخبرتها السيدة كولنز ان لديها بعض الرسائل للكتابة ولن تستطيع مرافقتها في نزهتها لكن سامنتا كانت تفضل الذهاب بمفردها.

اذهلها ما لمسته من حقيقة شعورها نحو بارني رغم انها ادركت انه كان بوسعها الانتباه الى العلامات الداكنة والتعرف عليها منذ وقت طويل اما الآن فقد فات الأوان.

راحت تمشي ببطء وتقذف الأوراق المتساقطة بقدمها وتتأمل صفحة الماء بتأثير النسيم المنعش وفكرت انه لا يحق للمرء الا يكون سعيداً في موضع رائع الجمال كهذا.

جلست على احد المقاعد الخشبية تمزق اوراق غصن التقطته وتنظر الى الافق محاولة ايجاد حل لمشاكلها. لم تعر الوقت انتباهها الى ان

لاحظت فجأة وجود شخص على مسافة ثلاثين او اربعين متراً وقد اتكأ على احد الاشجار وراح يقذف بالحصى في الماء.

حدقت به غير مصدقة وقلبها يخفق بسرعة جنونية ثم نهضت بسرعة واتجهت نحوه. وحين اقتربت منه فوجئت به يستقيم ويبدأ بالسير بالاتجاه المعاكس دون ان ينظر اليها.

«بارني».

استدار ببطء وحدقت بها عيناه الداكنتان من غير ان ترحبا بها ابداً. انتظر بصمت لحظة وصولها اليه فوقفت مترددة ترتعد فرائصها وقالت:

«مرحبا».

وشعرت بثقل دموع البارحة في جفونها حين نظر اليها قائلاً:
«مرحبا يا سام!».

ادركت سامنتا انه غير راغب في مساعدتها وغار قلبها:
«اني. . . قالت لي السيدة كولنز ان ادوارد وباتسي غادرا الفندق في الصباح الباكر».

«هذا صحيح».

«هل قررا العودة الى المنزل سيراً على الاقدام؟».

«نعم».

انكمشت يداها لا شعورياً وقد بدأت تنزعج لبرودته:
«لا اظن ان باتسي سرت بهذا المشروع».

«لم تكن مسرورة لكنها تفضله على خسارة ادوارد».

انتبهت الى المعنى المبيت في تلميحه فنظرت اليه بسرعة وجوبهت ببرودة عينيه القاسية:

«بارني. . . هل تعرف سبب رحيلي؟».

«لقد رحلت. وهذا يكفي!».

«لكنك يجب ان تعرف السبب».

«يجب؟ اعرف انك جعلت ادوارد وارن يساعدك على الهرب من دون علمي واعرف كذلك ان باتسي غوردن فاجأتك في غرفته في الواحدة صباحاً. اظن ان هذا سبب رحيلك».

حدقت به سامنتا مذعورة وغاضبة في الوقت ذاته.

«هي اخبرتك ذلك؟».

اكتفى برميها بنظرة خاطفة وكأنه يتحداها ان تكذب الخبر.

«وصدقت كلامها. طبعاً تصدق كلامها فانت تحكم علي من خلال افعالك انت».

ادركت ان كلامها حرك فيه اخيراً وتراً حساساً وسألها:

«ماذا تقصدين؟».

تلألأت الدموع في عينيها وانقبضت يداها بقوة ثم قالت:

«لقد رأيتها».

سكت لبرهة ثم مد يده وكاد ان يلامس خدها لكنه سحبها في آخر لحظة وقال:

«لقد رأيتها؟ وهي تغادر المبنى حيث غرفتي؟».

اومأت ايجاباً وعجزت عن التكلم لتألمها من تلك الذكرى وسمعته يقول لها:

«هل هذا سبب رحيلك؟».

«واومأت من جديد ودموعها على وشك الانهيار ثم قالت:

«وفي الصباح التالي كنت قد حققت رغبتها في اعادة ترتيب طاولة الافطار فما علدت استطيع الاحتمال».

«لكني لم اقم انا بالترتيبات بل ادوارد. هو الذي طلب ان يعاد ترتيب الطاولتين. وليس انا».

«لم اعلم بهذا الشيء».

شعرت سامنتا ان المسألة فقدت من اهميتها الآن ولم تكتسب اهمية وقتها الا لكونها واحدة ضمن سلسلة من الكوارث حلت بها تباعاً.

«كانت تعرف اني شاهدتها عائدة من المبنى حيث غرفتك وكانت تعرف ايضاً اني لن اخبر ادوارد كي لا اؤذيه فاستغلت الفرصة لاذلالي ولم اعد استطيع التحمل».

«هل شعرت بالغيرة؟».

نظرت اليه لاستنكار ما قاله لكنها سارعت الى اخفاض عينيها مجدداً معترفة بصحة افتراضه فانتبهت الى انه عاد الى ابتسامته المألوفة وسمعته يسألها بصوت ناعم:

«هل كنت في غرفته؟».

اومأت ايجاباً.

«لماذا؟ ام يجدر بي الا اسألك عن السبب؟».

«طبعاً يمكنك ان تسألني – ظننت اني دخلت غرفتها وكنت عازمة على... على التكلم معها ولم ار سوى شعاع نور تحت باب الغرفة رقم ثلاثة فدخلت».

«ووجدت نفسك في غرفة ادوارد».

ادركت انه بدأ يضحك فرمته بنظرة غاضبة وقالت:

«لا ارى ما يدعو الى الضحك يا بارني كدت ان اموت لشدة ارتباكي ثم وصلت باتسي وازدادت الأمور سوءاً».

«اعرف شعورك».

«تعرف – وكيف يمكنك ان تعرف؟ انا رأيت باتسي غوردن عائدة من مبناك تتسلل وكأنها لص. وقد اعترفت انها كانت هناك وكانت فخورة بذلك».

«فاجأتك داخل غرفة ادوارد لكن لم يكن في نيتك ان تكوني فيها البس كذلك؟».

«طبعاً لا».

«ولماذا لا تمنحينني شهادة براءة الذمة نفسها».

«آه بارني. اود ذلك. لا اريد التصديق انك كنت معها. عجزت عن النوم في تلك الليلة لشدة تعاستي».

مد يده مجدداً ولمس خدها بلطف فادارت وجهها ولامست انامله القوية وسمعته يقول:

«انت تطرق بابي وحين ادركت انها هي طردتها. ظننت للحظة ان الطارق انت».

نظرت اليه سامنتا وشعرت برعشة تعتريها وقالت:

«هل كنت طردتني لو طرقت انا بابك؟».

«طبعاً - الا تدرين اني انسان طاهر وشريف؟».

«آه بارني».

«آه سامنتا».

اقترب منها وضمها بين ذراعيه ولامست شفتاه جبينها وعينيها بلطف لكنها همست:

«قد يرانا احد».

«ان رأتنا صاحبتك السيدة كولنز فهنيئاً لها».

ثم ضحك حين نظرت اليه متسائلة:

«ماذا تعني؟».

«اعني انها اخذت مشروع سعادتك على عاتقها لا شك في انك اخبرتها عن مغامراتنا بالتفصيل وقد علمت ان العم نيكولاس يوافيني باخبارك وبمكان وجودك».

«أجل، لقد اخبرتها. كنت بحاجة للتحدث الى شخص ما وكانت لطيفة جداً معي ومتفهمة وهي تعرفنا ايضاً. لقد تذكرتني رغم انها لم ترني منذ زمن بعيد».

«اعرف ذلك فهي خابرت العم نيكولاس واخبرته انك هنا علماً منها انه سوف يطلعني بالخبر وقد سر للحصول على بعض المعلومات عنك. ومنذ لحظات قليلة اتت الي بعد ان تأكدت انك تتنزهين خارجاً وحدثتني عن الماضي واشارت بدهاء متناه الى انك تتمشين بين الاشجار في هذا المكان».

«آه. وكنت عازماً الا تكلمني اليس كذلك؟».

ضحك ثم قال:

«اجل. قررت انه حان الوقت كي اعاملك بالمثل وان اهرب منك. هل احببت ذلك؟».

رمقته سامنتا بنظرة معاتبة ثم قالت:

«كلا لم احب ذلك ابداً».

«تعرفين الآن ماذا شعرت طيلة هذه الرحلة».

«اني - اني آسفة».

ضحك بارني ثم قبل طرف انفها وقال:

«اعرف انك آسفة».

كانت تشعر بسعادة متناهية وهو يضمها الى صدره ونظرت اليه تسأله:

«بارني اما زلت تريد الزواج مني؟».

«الا اذا كنت تفضلين العيش في الخطيئة!».

«كلا اريد ان نتزوج».

«حسناً. لا يزال امامنا متسع من الوقت قبل الثاني عشر من الشهر. كنت متأكداً اننا سنتفق عاجلاً أو آجلاً وكان بامكانك ان تبقي في المنزل».

وابتسمت ثم هزت رأسها وقالت:

«لو لازمت المنزل لما كنت تعرفت على بيل وبيتر وادوارد وما كنت

ادركت اني افضلك عليهم جميعاً. اضافة الى اني سررت لتجميعي بعض المعجبين ايضاً».

«لقد جعلتني امر بلحظات قاسية جداً اثناء تكوينك لمجموعتك هذه وسوف اضطر الى مراقبتك عن كثب في المستقبل لتدارك تكرار حالتك».

«لن تعاودني هذه الحالة ابداً يا حبيبي».

«ارجو الا تعاودك. لكني سأحاول جهدي الا ادفعك في المستقبل الى التصرف بهذا الشكل».

«يمكنك مثلاً ان تكف عن معاملتي وكأني عبدة بين يديك».

وضمها الى صدره بلهفة ثم همس في اذنها:

«لن اعاملك هكذا ابداً يا حبيبتي، ابداً».